حبيبتي جبلة

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتاب العرب

البريد الالكتروني: E-mail :unecriv@net.sy

aru@net.sy

موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت

http://www.awu-dam.org

❑❑

صبحي سعيد

حبيبتي جبلة

قصص للأطفال

من منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق – ٢٠٠٤

الإهداء

إلى أمي !

التي ما زالت ترعى نجوم الحكايات في أفق حياتي..

وإلى كل غيمة وزهرة وعصفور وقطرة ندى وإلى كل طفل...
قهر رصاص الأشرار ومخالبهم السامة

٢٠٠٤/١٠/٢٥

صبحي

* * *

خطوة موفقة على درب وعر

ميخائيل عيد

علامة مفرحة أن تظل تكتب وتكتب وأن تظل تتقدم..بعض الكتاب يتألق في ما يشبه الفجاءة ثم ينطفئ وبعضهم يسير وئيداً على درب الإبداع يغالب الصعاب في كل خطوة ويتقدم معبداً دربه راسخ الخطوات.. وبعضهم يبقى متأرجحاً عند الحدود الوسطى وما دونها... والمسيرة الطبيعية

هي مسيرة الفريق الثاني...

الأستاذ صبحي سعيد كاتب وصحفي بدأ منذ سنوات يكرس نشاطه لأدب الأطفال... وأدب الأطفال عندنا وفي الوطن العربي محتاج إلى تضافر المزيد والمزيد من جهود المبدعين في أكثر من ميدان من ميادين الفن... والأستاذ صبحي من الذين يكتبون ويتقدمون ويعمقون تجربتهم كي تكون أزهارهم أجمل وكي تكون ثمارهم أشهى وأنفع.

في عمل الأستاذ صبحي سعيد الجديد واحد وعشرون عنواناً تتكامل مضامينها فيحار المرء في تسميتها... فهل هي أضمومة جميلة من قصص الأطفال أم هي رواية جميلة للأطفال توزعت على واحد وعشرين عنواناً؟ القصة منها مكتفية بذاتها لكن أختها التي تليها تغنيها وتزيدها

اكتفاء وكمالاً...

موضوع القصص ــ الرواية واحد لكنه فسيح يتسع لهموم أبناء الشهداء في ظل الاحتلال الصهيوني ولأحلامهم بالمستقبل الذي قدم أهلهم دمهم في سبيله، وهم بدورهم يعملون من أجله غير ضانين بشيء حتى الدم.

هنا، وسط الظلام الحاقد وبين مخالب الضغائن ومع غبار أنقاض المنازل المدمرة تتألق وجوه مفعمة إنسانية وتولد شموس محبة وتتصاعد أنغام الحنان والألفة والتعاضد فكأنما الكوارث تحفز الأخيار على فعل المزيد من الخير وتدفع المحبين الشرفاء إلى إبداء المزيد من الحب والإخلاص والشرف، تصير وجوه هؤلاء ملامح تنير عالمنا الداخلي وتغنيه.

ثمة قصص تحتاج إلى أكثر من وقفة تأمل

وإلى أكثر من قراءة أخص بالـــذكر منهـــا قـــصة "الزيارة"... فهي جميلة الجميلات بين أخواتهـــا... أو هكذا خيل لي...

العمل كله خطوة موفقة آمل أن تتبعها خطوات وخطوات على دروب الإبداع الوعرة...

حبيبتي جبلة

****

مجموعة قصصية، أسلط فيها الضوء على بعض الآثار النفسية للطفل العربي في فلسطين المحتلة، عِبْرَ مذكرات يكتبُها أحمد، تتشابك فيها جراح الواقع بأضاميم الحلم، عبقاً وشوكاً. فللأحلام عبير الأزهار وأشواكها. وينقلُ لنا أحمد جزءاً يسيراً من الواقع وهمومه.. ويركِّزُ

على ما يراه مهمَّاً وحميماً إلى قلبه وطموحاته وتطلعاته. لقد كانت الطبيعة مركبي إلى روح الشخوص الذين حاولت أن أقدمهم إلى العالم، بجراحهم وآلامهم ومعاناتهم وطموحاتهم العفوية البريئة.

وكانت الروح القومية والإيمان الجماعي ــ أجنحتي، إلى عالمهم الواسع غير المحدود. تجري الأحداث في مدرسة لأبناء الشهداء في فلسطين المحتلة. أليست فلسطين مدرسة للجهاد والشهادة، لنا جميعاً ونحن أبناؤها؟؟ آمل أن أكون قد وفقت إلى تقديم ما هو مفيد لطفلنا العربي وأدبنا العربي.، بما يخدم طموحاتنا الحضارية والإنسانية.

صبحي سعيد

دمشق: ٢٠٠٤/٥/٨

***

شدة وتزول

أعيشُ الآنَ في دارِ لأبناءِ الشهداءِ، في فلسطينَ المحتلَّةِ. في بدايةِ العامِ الدراسي الماضي، أوْصَلني والدي إلى بابِ المدرسة. قبَّلني كما لم يقبلني من قبل، ثم ضمَّني إلى صَدْرِهِ وهمَسَ في أذني بشفتين مُرْتَعِشتين: (يا أحمد.. أريدكَ أنْ تكون منَ الأوائلِ). نظرتُ إلى عينيه، فرأيتُ

غيوماً داكنةً سوداءَ، يُبْرِقُ فيهما ومـيضٌ حـادٌ، يضيءُ وجهَهُ الأسمرَ. عانقني ومضى.. ولـمْ أرَه ثانية إلاَّ.. في الأحلام والخيال. قالتْ لي أمي بعدَ أيامٍ، عبْرَ دموعها: (أنتَ ابن شـهيد يـا أحمـد). نظرتُ عبرَ النافذة فرأيتُ القمرَ بدراً تحيطُهُ غيومٌ داكنةٌ متفرِّقَةٌ: رأيتُ أبي يقفزُ مـن غيمـة إلـى أخرى.. وكأنَّهُ منهمكٌ في عملٍ مُهِم.. وكأنَّهُ كـانَ في الحقل، يسقي شجرات بستاننا وهو يُدَنْدِنُ أغنيةً مرحةً. خُيِّلَ لي أنَّني ناديتُهُ حتى بُحَّ صـوتي. لا أذكرُ كيفَ نمتُ في تلك الليلة.. إلاَّ أنَّني أذكرُ أنني استيقظتُ مع أذانِ الفجرِ لأتابعَ دروسـي وأعمـلَ بوصيَّةِ والدي. وقد حصلتُ على أعلى الـدرجاتِ في دروسي كلها، علـى الـرغم مـن الظـروفِ الصعبةِ التي عشناها، بعد رحيلِ والدي. فقدْ وقَعَتْ أمي بينَ أنيابِ المرضِ... وعانتْ طويلاً من آلامٍ قاسية. كنتُ أنظرُ إليها وأبكي وهي تـضمُّ إلـى

صدرها شقيقتي رشا ــ ابنة الــسنوات الخمــس. وكانتْ عندما تسمعُ بكائي، تناديني وتَضُمُّني إلــى صدرها وتقول: (شدة وتزولُ إن شــاء الله! شــدَّةٌ وتزول!) فإذا اشتدَّ بكائي أنَّبَتْني بحنان وهي تقولُ: (أنت رجلُ البيت يا أحمد.. وتبكــي؟؟). تــصمُتُ بُرهةً وهي تداعبُ شعري ثم تقول: (البكاء لايطعم خبزاً يابني) وكان أملي كبيراً بشفائها.. فقد كــان يزورني، كل ليلة في الحلمِ، رجلٌ طويــلٌ بثيــابٍ بيضاءَ ولحيةٍ طويلةٍ... يتوكأُ على عصا، في مرجٍ أخضرَ، تطيرُ فوقَ رأسه حماماتٌ ملوَّنَةٌ، وتحــومُ حولَهُ غزلانٌ جميلةٌ، تتقافَزُ بمرَحٍ ورشاقة. أســيرُ معهُ بين الأشجارِ، في مــرجٍ يطْفَــحُ بالأزهــارِ والرياحين. أسمعُهُ يقولُ لي: (أنت حزينٌ... حزينٌ يا أحمد) ويربتُ على كتفي يُطمئنني: (شدَّةٌ وتزولُ يا بني شدَّةٌ وتزولُ) وكنتُ أتابعُ دروسي بكلِّ مــا أملكُ من قوة وأعيشُ مع أحلامــي فــي الليــلِ،

وأتضرَّعُ إلى الله في صلاتي: يا ربِّ! اشفِ لـــي أمِّي.. يا ربِّ قفْ إلى جانبِ أمي وأنـــتَ أَرحـــمُ الراحمين)..

نادتني أمي ذاتَ يوم وقالتْ لي: (يا بني، لماذا لا تخرجُ وتلعبُ مع أترابك... أخرجْ يا بني إلـــى أصدقائك). قبّلتُ يديها وبكيتُ وأنـــا أقـــولُ: (يـــا أمي... الجنودُ الصهاينةُ منتشرون في كلِّ مكـــانٍ، يطاردون الأطفالَ من شارعٍ إلى شارعٍ، بالدباباتِ والسياراتِ المصفحةِ والقنابلِ المسيلةِ للـــدموعِ... والهراواتِ..) نظرتْ إليَّ طويلاً ثم قالتْ: (أنـــت ابن شهيد يا بني.. لا يليقُ بك الجلوسُ في المنزلِ، وأترابـــكَ يواجهـــون المحتـــلَّ بـــصدورهم.. وبالحجارة...).. ومنذُ تلك اللحظةِ لم أعدْ أجلـــسُ في المنزلِ إلاَّ بعدَ العشاء لأتابعَ دروســـي. كنـــتُ أتركُ قلبي إلى جانبِ أمـــي المريـــضةِ وشـــقيقتي

الهزيلة. ولم تكنْ أمي تَسْمَح لأحد أنْ ينشغلَ بها.. كي لا تكون عبْئاً على أحدٍ. كنتُ أعود إلى المنزلِ فتستقبلني بشوقٍ.. أجلس إلى جانبها أتنَشَّقُ رائحتَها وأنا أحكي لها عن معاركِنا مع العدو الصهيوني... فأشعرُ أنَّها تصرَعُ المرضَ بابتساماتِ الدَّهْشَةِ والفرَحِ... ذاتَ يوم سألتني عن طموحي: (ماذا تحلم أن تكون في المستقبل يا أحمد؟ طبيب؟ محامي؟) فأجبتُها بنزَقٍ: (ليش عمْ يتركونا نصير؟..) وأقصدُ أنَّ الصهيونية لا تتيحُ لنا أن نسيرَ إلى أحلامِنا بسلامٍ. فسألتني بغضبٍ: (ومن تقصد يا بني؟).. فأجبتُها بألم وحسرة: (الصهاينة الأشرار، وهل هناك غيرهم؟) عندئذ رمتني بنظرةٍ تشتعل بعتابٍ ولومٍ وتأنيب: (يا أحمدُ تُؤخذُ الدنيا غلاباً) ومازالتْ هذه العبارةُ تومِضُ في روحي.. شعرتُ بعدَها أنَّني إلى جانبِ خالدِ بن الوليد. هذا القائدُ الذي قرأتُ عنه الكثير، فيما

بعد... وفكرت بـــه كثيـــراً... وأحببتُـــهُ حبـــاً لا يوصف. وأظنُّ أن والدي كان يحدثني عن خالد بن الوليد كثيراً، حتى أنني سألت والـــدي ذات يـــوم: (لماذا لم تسمِني خالداً يا والدي...) وفهم والـــدي قصدي. ابتسم وقال: (الأسماء ليستْ كلَّ شـــيء... واسمكُ أحمد... أتعرفُ من هو أحمـــد؟) خجلـــتُ وتمنيتُ أن تنشقَّ الأرضَ لتبتلعني.. إلى حدٍّ أننـــي كدْتُ أبكي من الخجلِ.. ربتَ أبي علـــى ظهـــري بقوة ليساعدني على الخروج من حرجي وخَجَلـــي وقال: (الرجالُ بزنودها وقلوبها... يـــا أحمـــد!). أيقظتني أمي من شرودي وشجَّعتني على الخروج، لألتحقَ بأترابي من الأطفالِ وأوصتني أنْ أكـــونَ معهم دائماً. قبَّلتُها وعانقتُها طويلاً ونظـــرتُ إلـــى شقيقتي بعينين تطفحانِ دمعاً. كانتْ غارقةً في نومٍ عميقٍ ترفُّ على محياها ابتسامةُ جذلى. كان بودّي أن أعانقّها... لكن أمِّي مَنَعَتني بإشارةٍ رقيقةٍ مـــن

يدها.. ومضيتُ وانضممت إلى أترابي وكأنَّني باشقٌ اشتعلُ حماسةً وشجاعةً وإقداماً. وقُبَيْلَ العشاءِ عدْتُ إلى المنزلِ، أحلِّقُ على أجنحةِ الأملِ لأحكيَ لأمِّي عن معاركِنا.. من بعيدٍ رأيتُ منزلَنا وقدْ تحوَّلَ إلى ركامٍ. أخرجوا أمِّي وشقيقتي من بين الأنقاضِ. ولم يسمحوا لي بتوديعهما إلى مثواهما الأخير. ومنذ ذلك اليوم أعيشُ في هذا الملجأ، أتابع فيه دراستي، أستمدُّ قوتي من وصيةِ والدي وكلماتِ أمّي التي تلازمني في يقظتي ومنامي.

أحلام أحمد وعيسى

جاءني اليوْمَ عمِّي ناصر إلى الدارِ. لمْ أرَهُ منْذُ زمنٍ بعيد. أظنُّ أنَّني رأيتُهُ آخرَ مـرَّةٍ وأنـا فـي الصفِّ الأول. انتظرتُهُ طويلاً بشوْقٍ فلـمْ يـأت. سألتُ عنهُ فقالَ لي أبي رحِمَهُ اللهُ: (عمُّكَ يا بنـيَ مُعْتَقَلٌ في سجونِ العدوِّ الصهيوني..) كنْتُ أذكـرُهُ

كثيراً.. وأذكُرُ أغانيه، يعزفُها لي على العودِ وأمِّي تُصَفِّقُ لـــه تَصْفيقاً خفيفاً وتميلُ برأسِـــها طَرَبـــاً وسروراً بعيونٍ طافِحَةٍ بالفَرَحِ.

عادَ عمي بعدَ غيابٍ طَويلٍ ليجدَني في دارِ أبناءِ الشُّهداء. ضَمَّني عمي ناصر وبكى طَويلاً بـــصَمْت. كنتُ أشْعُرُ بدموعه تَنْهالُ على شعري وتَتَحَدرُ على عُنُقي. حاولتُ أنْ أَتَحَرَّرُ من بين يَديه لأنْظُـــرَ إلـــى عينيه لكنَّني لمْ أُفْلِحْ. ثُمَّ رَفَعَ رأسَهُ وقالَ لي بكلمـــاتٍ هادئة: (هيَّا يا أحمد.. سنعيشُ معاً.. أنـــا وأنـــت.. سنكونُ صديقين وحبيبين..) لم أجِبْه. نَظَرْتُ طـــويلاً إلى ساعده المبْتورَة.. إنَّها يدُه اليُمنى التي يَمْسكُ بها ريشَةَ العودِ ويعزِفُ بها. سألتُ نفسي: (هل تَحْتـــاجُ إليَّ يا عمي؟!) آه ما أصعبَ الإجابَـــةَ عـــن هـــذا السؤالِ. هلْ أستطيعُ أنْ أحكي لكَ يـــا عمـــي عـــن صديقي عيسى في هذه اللَّحَظاتِ الحميمةِ؟؟ كِلانا في

الصفِّ الخامس. لقدْ أرسَلَهُ اللهُ إلـــيّ ليكـــونَ تَـــوْءَمَ روحي. عندما يَتَحَدَّثُ عيسى عن آلامه، أشْعُرُ أنَّـــهُ يتحدثُ بقلبي وروحي.. وعندما يَحْكـــي لـــي عـــن أحلامه، أشْعُرُ أنِّي أقودُ جَيْشاً كبيراً، يَهُبُّ من مكانٍ إلى آخَرَ، ليُحَقِقَ العدْلَ والمساواة. آه يا عمي.. لقَـــدْ زَرَعْنا بأَحْلامِنا العالمَ كلَّهُ وجَعَلْناهُ روضـــةً كبيـــرةً واسعةً ليكونَ جَنَّةً لكلِّ طفلٍ ذاقَ طَعْمَ القَهْرِ والظلـــمِ والحِرْمان واليُتْمِ والمرارة. يا عمِّي منـــصور! أنـــا وصديقي ندْرُسُ ونَجْتَهِدُ طوالَ النهارِ، وفي المـــساءِ نمضي مع أحلامِنا نَحْرُثُ ونزْرَع ونسقي ريـــاضَ أحلامِنا، ونَقْطِفُ ما لذَّ وطاب من الثمار؛ نوزعهـــا على الفقراء والمحرومين والمساكين من أطفالِ هذه الدنيا. هي أحلامٌ يا عمي. نَعَمْ أحْلامٌ.. سنقاتلُ بهـــا أوهامَ الصهاينة الأشرار. بالأمْسِ حدَّثَنا الأُسْتاذُ ماجد عن أوهامِ الصهاينة الأشرار. سألْتُه أنْ يَـــشْرَحَ لنـــا هذه الكلمةَ بأسلوبٍ بَسيطٍ فقالَ: (الأوهـــامُ ـــ هـــي

أطماعُ الأشرارِ.. الأطماعُ المُسْتحيلَةُ ــ هــي التــي نُسَميها أوهاماً..) ونَبَّهنا الأستاذُ ماجــد قــائلاً: (يــا أحبائي.. نحنُ العرب سنحرقُ أوهــامَ الــصهيونيةِ بشجاعتنا وتَضْحياتِنا من أجْــلِ الإنــسانية جَمْعــاء) ونحن يا عمي ناصر.. نطيرُ كغيومٍ ونحلِّــقُ فــوقَ السهولِ والجِبالِ والوِدْيان، حينَ نَسْتَمعُ إلى أســتاذنا ماجد. لَوْ تعرفُ يا عمي ناصر، كَمْ أنا فَرِحٌ بــكَ.. عندما اقتَرَبْتَ منِّي، غَمَرَتْني رائحةُ أبــي فتَبَخَّــرَتْ آلمي وأحزاني، وغرَّدَتْ روحي. ولَوْلا شوقي إلــى أبي وأمي لغَرِقْتُ في نوْمٍ عَميقٍ وَطُفْتُ بِقاعَ الــدنيا مع ملكِ الأحلامِ وأنا بينَ ذراعيكَ. كنتُ أتَمنــى أنْ أغوصَ في عينيكَ وهُما طافحتانِ بــدموعِ الــشَّوْقِ والحُزْنِ والأَلمِ، في لحظةٍ تَرْقُصُ فيها الأفراحُ على أنغامِ نَبَضاتِ قلوبِ الأحبَّةِ. كنتُ أظنُّكَ أقربَ النَّاسِ إليَّ؛ حتى أقربَ من أبي وأمي، عندما كنت تزورنــا لتلعب معي وتُغَنِّي وترقُصَ لي. وأحزَنُ وأغْــضَبُ

عندما كنت تُغادرَنا.. وكنتُ أتَمَنّى أنْ تأخذَني معكَ إلى حيثُ أنتَ ذاهبٌ.. لقدْ أَحْبَبْتُكَ أكثرَ من والدي ووالدتي.. وأُحبُّكَ الآنَ أكثَرَ. قَطَعَ اللهُ من بَتَرَ ساعدَك وحَرَمَكَ من العَزْفِ على عودكَ الغالي. أينَ عودُكَ الآنَ يا عمِّي ناصر؟؟ أذْكُرُ أنَّهُ كان مُعَلَّقاً على الجِّدارِ يُزَيِّنُ مَنْزِلنا الذي أصْبَحَ كَوْمَةً من الأنْقاضِ على يَدِ الصهاينةِ الأشرارَ. وكمْ أتَمنَّى أنْ أمضي معكَ الآنَ إلى حيثُ تشاءُ، لأكونَ خادمكَ الأمينَ وصَديقَك الحَميمَ ورفيقَكَ الوفيَّ... ولكنْ، كيفَ أتركُ صَديقي وحَبيبي ورفيقَ أحلامي عيسى، وَحيداً في الدَّارِ؟؟ لا، لنْ يكونَ وحيداً.. فهو مَحْبوبٌ جداً من زُملائه وأصْدقائه جميعاً، في الدَّارِ.. لكنَّنا تعاهَدْنا على أنْ نكونَ روحاً وقلبْا ويداً واحدة.. نبني ونزْرَعُ ونَجني معاً.. ولنْ يُفَرِّقَنا إلاَّ الموتُ. قَبَّلَني عمي في جَبْهَتي وقال مُوَدِّعا:

ــ سأزورُكُم دائماً!

وابتسم لي بألَمٍ وقالَ بأسى:

ــ سأتزوَّجُ يا أحمد. وأريدُكَ أن تكــونَ إلـــى جانبي.

قَفَزْتُ مُعَبِّراً عن بَهْجَتي هاتفا: (ألــفُ.. ألــفُ مَبْروك يا عمِّي!!) وقَبَّلتُ عمِّي مُهَنِّئــا مُتَمَنِّيــا لَــهُ التَّوفيق والنَّجَاحَ. وقَبْلَ أنْ يَمْضي، انحنــى وتنــاولَ كيسا كانَ إلى جانبِه وهوَ يقولُ: (هذا لكُمْ جَميعا) ثُــمَّ صافَحَني ومَضى. نادَيْتُه: (عمي! أرجوكَ أن تُسَمِّي أوَّلَ ابن لك عيسى على اسم صــديقي) رَفَــعَ يــدَهُ تَعْبيراً عنْ عَدَمِ موافَقَته. اقتَرَبَ منِّي ثانيــةً وهَمَــسَ بأُذُني: (أتَمَنى أنْ يكونَ ابني صديقاً لأحمدَ وعيسى.. لكما معاً.. سأسمِّي ابني على اســمِ أبيــكَ (عمــرٍ) ليكونَ أحمدُ وعيسى وعُمَرٌ روحاً وقلباً ويَداً واحدة، يَزْرَعونَ ويبنونَ أحْلامَنا.. أحْلامَ أُمَّتِنا العربيةِ.

. . وأنا ابن شهيد

بعد أن ودَّعت عمي، عدتُ إلى باحة الـــدارِ. كان صديقي عيسى جالساً إلى مقعدٍ خشبي قـــديمٍ، يرسُم منظراً طبيعياً. راقبتُه طويلاً، حتَّى كَفَّ عن الرسمِ. نظرَ إليَّ كأنَّه يسألني عن رأيي باللوحـــة. وحين قرأ إعجابي بلوحته اطمأن. قال لي: (انظرْ

ــ وأشارَ إلى اللوحة ــ إلى هذا المرجِ الأخــضرِ الذي تحيطُهُ الأشجارُ. سأرسُمُ طفلين ــ أنا وأنــتَ ــ يلعبانِ... فجأةً تختــرقُ الــدباباتُ الــصهيونيةُ المرجَ، تحرقُ وتدمرُ ما حولها فماذا نَفْعــلُ، أنــا وأنت؟) قلتُ بحماسةٍ ودون تردُّد: (سنقاتلُ). نظرْنا فإذا بالأستاذِ ماجد يقفُ إلى جانبنا مــنْ غيــرِ أنْ نشعرَ. نهضنا احتراماً، لكنَّهُ سلَّمَ علينا كما يــسلمُ الآباءُ على أبنائهم. جلــسَ معنــا ودَعانــا إلــى الجلوسِ. قالَ كمنْ يعتذرُ: (لا تــستغربا... فأنــا أزورُ الدارَ كثيراً.. وأحياناً عندما تكونون نياماً) سألته: (وماذا تفعلُ يا أستاذُ؟) شعرتُ أنني أوجِّــهُ سؤالاً خشناً قاسياً لرجلٍ نرى فيه أمّاً وأباً وصديقاً. تمنيتُ أنْ لا يجيبَ عن هذا السؤالِ الذي يفتقرُ إلى الأدبِ واللَّباقَة... أخذَ الأستاذُ ماجد يحــكُّ رأسَــهُ بسبابتِه وينظرُ إلينا وعيناهُ تَتَــضَحان ودّاً غزيــراً وهو يبْحَثُ عنْ جوابٍ مناسبٍ مقنــع، ثــم قــالَ

ببساطة: (هذا بيتي أيضاً. ألا تعرفون أنني أنا أيضاً ابن شهيد؟؟ ونحنُ إخوةٌ.. لكنَّني الآنَ بمقامِ والدكم)... ثم أشارَ الأستاذُ إلى ساقِه: (في هذه الساق أربعُ رصاصاتٍ وفي هذه الساق رصاصتان، وهنا ــ وأشارَ إلى خاصرته اليمنى ــ دخلتْ رصاصتان وخرجتا. أربع مرات كدتُ ألتحقُ بموكبِ الشهداء. لكنْ لمْ تُكْتَبُ لي الشهادةُ لأتعرَّفَ إليكم...) ثم صَمَتَ برهةً وهو ينظرُ إلينا وقال: (... في النهاية.. كلُّنا شهداءٌ حتَّى نحقق النصرَ الكاملَ...) ... صمتَ وهو يحدِّقُ إلينا ثم قالَ بفخرٍ: (أكرَمَنا اللهُ بالشهادة... وكلٌّ منْ يقاتلُ في سبيلِ الحقِّ ــ هو شهيدٌ)... ثم تناولَ الأستاذُ ماجد اللوحةَ منْ يدِ عيسى وراحَ يتأملُها. شعرتُ أنَّهُ دخلَ إلى عالم اللوحة التي رسمَها عيسى.. واختفى بين أشجارِها وظَهرَ ثانيةً يتجوَّلُ من مكان إلى آخرَ. تنهَّدَ بعمْقٍ وقالَ: (كنّا نعيشُ في قريةٍ

خضراءَ كأنَّها جنَّةٌ من جنانِ الله... أذكرُ أنِّي كنتُ مع جدي (لأمي) وأبي نقطفُ الرمَّانَ من بستاننا. كان جدي وأبي يقطفانِ الرمانَ وأنا ألعبُ مع خروفٍ أبيضَ كان ينطحني ويرميني أرضاً... ثم يدورُ حولي كأنَّهُ يدعوني إلى منازلته.. فأحملُ عوداً وأطارده.. يبتعدُ عني وينظرُ إليَّ كأنَّهُ يتحداني أن ألحقَ به. وكانتْ أمُّه النعجةُ تثغو بين الفينةِ والأخرى كأنَّها كانتْ تُحَذِّرُهُ من إيذائي. وعندما كان يتعبُ، يستلقي في الظلِّ... فأقتربُ منه وأستلقي إلى جانبه وأضعُ رأسي على ظهرِه الصوفي الناعمِ... نغفو معاً... وكنَّا نحلمُ معاً... ونلعبُ في الأحلامِ معاً، ونمضي إلى أماكنَ بعيدة... كلَّ يوم نزورُ مكاناً جديداً. كنتُ أتصورُ أني سأعيشُ عمري كلَّهُ مع خروفي وأمِّه التي ستلدُ لنا خرفاناً كثيرة، فيصبحُ لدينا قطيعٌ كبيرٌ من الخرفان.. أرعاها وأدورُ بها من مرجٍ إلى مرجٍ،

ومن جدولٍ إلى جدول.

كانَ أبي دائمَ الاستماعِ للمــذياع. وذاتَ يــومٍ بينما كنَّا نستعدُ لتناولِ الغداء ونحنُ في البــستان، التصَقَ والدي بالمذياع وطــالَ اســتماعُه. كنــتُ أراقبُ وجههُ وعينيه وكأنَّهما غيومٌ في وجهِ رياحٍ عاصفة.. ثم نهضَ أَبي وراحَ يرقصُ ويهتفُ: (اللهُ أكبرُ! يا الله يا الله! النصر! يا الله.. النصر!) ثــم اقتربَ منِّي وهزَّني بعنف: (الحــربُ.... قامــتْ الحربُ يا ماجدُ.... لقدْ هــبَّ العــربُ لاســتعادة حقوقِهم من الصهاينةِ الأشرارِ....) استيقظتُ فــي الصباحِ ولمْ أجدْ والدي.... ومضيتُ إلى البــستانِ مع جدِّي... لا أدري، لماذا لم أسألْ عن أبي. كنتُ أنظرُ إلى عيني جــدِّي وأراقــبُ حركاتــه وأنــا أتساءل: أين هو والدي الآنَ؟؟. لمْ يعدْ جدي ينــامُ باكراً كعادته بعدَ صلاة العشاء. كان يشربُ الشايَ

ويستمعُ إلى المذياعِ مع والدتي... وكانت أشدَّنا فرحاً، رغم غيابِ أبي. عرفتُ بعد ذلك أن أبي يحاربُ الصهاينة... في الجبهةِ. وكانتْ أمي ترافقنا أحياناً إلى البستانِ وهي تحمل أخي الرضيع، تَضَعُهُ تحت ظلِّ شجرة، لتساعدَ جدِّي في أعمالِ البستان. لم أعدْ ألعب مع خروفي إلا نادراً (وحتى الآن عندما أرى خروفاً صغيراً، أطيرُ فرحاً، لكنَّ قلبي يذوبُ حزناً وأسى) كان جدي يزدادُ حيويَةً ونشاطاً، يوماً بعد يومٍ وهو يستمعُ إلى المذياعِ ويحمدُ الله بصوتٍ عالٍ كمنْ كان يبشرِني بانتصاراتِ العربِ في الحربِ على الصهاينة الأشرار. لمْ يتجاوزْ عمري في تلك الأيامِ ست سنوات. لم يعدْ والدي من الحرب. ومع بداية العامِ الدراسي جاءَ بي جدي إلى هذه المدرسة. كنتُ أدرسُ في الشتاءِ وأسافرُ في الصيفِ أساعدُ جدي وأمي في أعمالِ البستان....

وعرفتُ بعد مدة أنَّ والدي كان من شهداء حـــرب تشرين التحريرية التي حقَّقَ فيها العرب انتصارات عظيمة على الصهاينة الأشرار. نظر الأستاذُ ماجد إلى ساعته.. ثم هبَّ واقفاً معتذراً:

ــ حان وقت عشائكم... سنلتقي غداً للحـــديثِ عن حربِ تشرين التحريرية التي هـــزَّتْ الكيـــانَ الصهيوني وكادتْ تُحَقِّقُ النصرَ الأكبَرَ للعـــربِ.. لولا.....

ثمَّ تَنَهَّدَ بألمٍ وأسى مودعاً دون أن يكمِلَ جملتَهُ الأخيرة.

رسالة إلى خالتي

استلمَ صديقي عيسى رسالةً،عرفتُ أنَّها مـــن خالتهِ في الولايات المتحدة الأمريكيـــة.. وتابعتُـــهُ وهو يقرؤها غير مرة.... كان يقرؤهـــا ويتأمـــلُ الرسالةَ طويلاً، ثم يسرحُ بأفكارهِ في الأفُقِ البعيدِ.. لمْ أعرِفْ ما إذا كانَ صديقي حزيناً أمْ سعيداً بهذه

الرسالةَ. ولمْ أسألْهُ عن مضمونها خَوْفاً من إحراجه أو جَرْحِ مشاعرِهُ. ثم اختفَت الرسالةُ من بين يديه أكثرَ من أسبوعٍ، ظَنَنْتُ أنَّهُ مزَّقَها أو خبَّأها. وكدْتُ أنْساها لو لمْ يقترِبْ منِّي عَصْرَ هذا اليومِ، ليقدِّمَ لي رسالةً، عَرَفْتُ أَنَّ عيسى كتبَها إلى خالته، ويطْلُبُ مني أنْ أُبْدي رأيي فيها. أخذتُ الرسَالةَ وأنا أنظرُ إلى عينيه. شعرتُ أنَّهُ يُعطيني أغلى ما يَمْلُك.. ثم ابتعدَ صاحبي عني.. بدأتُ أقرأ الرسالةَ باهتمام وأتابع سطورَها بشغفٍ:

خالتي الحبيبة!

أدامكِ اللهُ ورعاكِ!

قرأتُ رسالتَكِ غيرَ مرةْ.. وغفوْتُ وهيَ على صَدْري، كما كنتُ أغفو على صدرِك أحياناً...فأخذَني ملكُ الأحلامِ على أجنحته الرحبَةَ الواسعةِ، وطفْتُ مَعَهُ في كلِّ مكانٍ زرْنَاه معاً...

ثم جَلَسْنا في مرْجٍ أخضرَ يَطْفَحُ بالورود ويعبقُ بالشَّذا، كأنَّنا كنَّا في بستاننا الحبيب، الذي سَرَقَهُ منَّا الصهاينةُ الأشرار. من بعيد رأيتُ القَمَرَ بدراً كبُرْتُقالة كبيرة، يَسْتَرِقُ النظَرَ إلينا من بين الأغْصانِ، لينصُتَ إلى أحاديثنا. كان جدِّي رَحِمَهُ الله، يعشقُ البدرَ. كان يناديني ويسألني مشيراً إلى البدْرِ: (هل رأيتَ البدرَ راقصاً يا عيسى؟) ثمَّ يَضُمُّ رأسي إلى رأسه، ويميلُ بي يُمْنةً ويُسْرَةً ونحنُ ننظُرُ إلى البَدْرُ يَتَراقَصُ بين الأغصانِ... ويسألُني: (هل تسمعُ غناءَ القَمَرِ؟).. فأجيبُهُ بسذاجَة: (لا! فيَضُمُّ رأسَهُ إلى رأسي ويقولُ لي: (انصتْ) فأصغي.. فلا أسمعُ إلاَّ وشوشاتٍ تأتيني من بعيد، تُدَغْدِغُ صَدْري وتُداعِبُ سَمْعي.

منذُ أيامٍ شاهدتُ نفسي في الحُلْمِ أَتَوَسَّدُ البدْرَ كأنَّهُ كُرَةٌ كبيرةٌ أتَّكِئُ عليها. كان البدرُ ليِّناً طَرِيَّاً

ودافئا، يَعْبَقُ برائحة منعشَة. يقولُ العلماءُ إنَّ القمرِ صحارى وجبالٌ، ليسَ فيهاً حياةٌ، فكيفَ جَعَلَهُ ملكُ الأحلامِ طريًّا، ليِّنا دافئا ومُنْعشا على هذه الصُّورة السَّاحرَة؟؟ آه يا ملكَ الأحلامِ وأنتَ تُهْديني أَجْمَلَ ما أتَمَنَّاه.. ليتَني أستطيعُ تَقْديمَ هذا البدرِ السَّاحرِ إلى جدِّي. سأحملُهُ على كَتفي ــ هكّذا فكَّرْتُ في الحُلُمِ ــ كما أحملُ البَطِّيخَة، إلاَّ أنَّهُ كانَ كبيراً جداً، بحَجْمِ عَشْرِ بطيخات. لكنَّني حملتُهُ.. كانَ خفيفاً جدَّاً. رُبَّما كانَ هو الذي يَحْملُني ويطوفُ بي، ويبْحَثُ معي عنْ جدِّي. كانَ قلبْي يُناجي ويهتفُ: (يا مَلَكُ أحلامي جِدْ لي جدِّي.. فأنتَ أَشْطَرُ من خاتمِ سُليمانَ بألفِ مرَّة ومَرَّة...) رأيتُ جدي.. وكأنَّه كانَ يبحثُ عنِّي وعنْ والدي وأمِّي. كان حزيناً قَلقاً. تَصوَري يا خالتي، لمْ أرَ جدِّي حزيناً قطْ. كَانتْ بَسْمَتُهُ أجْمَلَ منِ البدرِ التَّمام نَفْسِهِ، وضِحْكَتُهُ أحلى من أنغامِ العصافيرِ وهَمْسِ

الجَّداول. لمْ أرَهُ حَزيناً حتَّى عندما شاهَدَ الجُّنــودَ الصَّهاينَةَ يحْرِقــونَ بُــسْتانَنا ويُــدَمِّرونَ مَنْزِلَنــا ويَغْتالونَ أبي أمامَ عينيه. لأنَّ أبي قَتَلَ مُــسْتوطِنا صَهْيونياً تَسَلَّلَ إلى بُسْتاننا في ليلةٍ ظَلْمــاءَ، مــعَ لصوصٍ آخرين. وبعدَ مَعْرَكَةٍ طويلةٍ أُصيبَتْ أمي بطَلْقٍ ناري وارْتَمَتْ على الأرضِ، وكُنْــتُ إلــى جانبها. نَظَرَتْ إليَّ ومَسَحَتْ وجْهي بكفِّها المُــدَمَّى وأغْمَضَتْ عينيها إلى الأبَد. في ليلة واحدة فَقَــدْتُ أمي وأبي.. ولمْ أرَ جدِّي حزينا، وهو يرى ابنَــهُ الوحيدَ قتيلا، إلى جانبِ أمي. قالَ لي جُمْلَةً واحدةً: (اسْتَشْهَدَ والدُكَ وأمُّكَ دفاعاً عن الأرضِ) فَكَفَفْــتُ عنِ البُكاء وأنا أرى أبي وأمي مُعَفَّرينِ بــالتُّرابِ، مَضَرَّجَين بالدِّماءِ... كأنَّ اللهَ أدْخَلَ الــسَّكينةَ إلــى نفسي وصوَّرَ لي أبي وأمــي ملاكــين ترافقُهُمــا العَذْراءُ عليها السَّلامُ، إلى جنانِ الخُلْد.. لكنَّ قلبي لنْ يَكُفَّ عن البُكاءِ، ألَماً وحُزْناً على أمــي وأبــي

الحبيبين. كان جدِّي كلَّما يزورني في الدَّار يقــولُ لي: (أمُّكَ وأبوكَ يُقْرِئانك السَّلامَ يا عيسى) فأراهما أمامي كما كنتُ أراهما يَعْمَلانِ معاً في البــستان، وأعيشُ مَعَهُما لحظات قصيرةً فأشْعُرُ أنَّي أتَعَمَّــدُ برائحتِهما الزَّكية، فأغدو غيمــةً تُعــانقُ بقَطْرِهــا الورودَ والأغصانَ والمروجَ. ويُوَدِّعني جدِّي وأنا أرى البدر يَتَمايَلُ فوقَ وجْهِــه.. لكنَّنــي رأيتُــهُ بالأمْسِ حزيناً في الحُلُمِ، يَبْحَثُ عن والدي وأمي. ربَّما لأَنَّني لم أحْصَلْ على الدَّرَجَةِ التَّامَة في مادة الرياضــيات؟ كنْــتُ مريــضاً ولَــمْ أَدْرُسْ قبْــلَ الاختبارِ... رُبَّما كان حزيناً عليَّ.. لأنَّنــي كنــتُ مريضاً؟ لا أدري!

خالتي الحبيبة! أذْكُرُ أنَّك سافرْت إلى أمريكــا وأنا في الصفِّ الأوَّلِ. وأذْكُرُ أنَّنا كنَّا في العُطْلَــةِ الإنْتصافيةِ حين سَطا اللُّصوصُ الــصهاينةُ علــى

بُسْتانِنا وقتلوا أمي وأبي. ومنذُ أمسِ ذلكَ الحين لمْ أسمعْ عنْك خبرا. كيفَ اهتَدَيْتِ إلــى عنــواني؟؟ وكيفَ عرَفْتِ مكاني؟؟ أعيشُ الآنَ في دارِ أبنــاءِ الشُّهداء.. وأنا في الصفِّ الخامسِ، وعندي العديدُ من الأصدقاءِ والأخوةِ.. ومِنْهُمْ صــديقي وأخــي الحبيبُ أحمدُ مهيار وياسر...

خالتي الحبيبة، أرجوك.. لا تحاولي أَخْذي إلى أمريكا فهلْ أستطيعُ العيشَ في بَلَدٍ يُساعدُ حُكّامُــهُ اللصوصَ الصهاينةَ، الذين قتلــواْ أبــي وأمــي، وسرقوا أرضي؟ بالأمْسِ كَتَبَ الأستاذُ ماجد هــذه العبارة على السُّبورَة:

((أنا سَمَكَةٌ.. لا تعيشُ إلاَّ في الماءِ))

وطَلَبَ منّا أنْ نُعَلِقَ على هذه العبارةِ.. وأنا يا خالتي طيرٌ لا يعيشُ إلاَّ في فضاء بلادهِ!

ذكريات الجدة

قالَ لنا الأستاذُ ماجد قبلَ أن يودِّعنا: (أنتمْ مدعوون غداً إلى حَفْلِ عيدِ ميلاد.. سنَنْطَلِقُ بعدَ انتهاءِ الدُّروسِ مباشرة). فكَّرنا ــ أنا وصديقي عيسى: (إذنْ علينا أن نقدِّمَ هديةً، مَهْما كانتْ هذه الهديةُ متواضعةً، لأُستاذِنا وصديقنا الحبيب ماجد)

قال لي عيسى: (ليس لدينا إمكانيةٌ إلا أن نرْسُمَ له لوحةً نقدِّمُها إليه... فهو يحبُّ الرَّسمَ كثيراً) ثم بدأنا نفكِّرُ باللوحةِ التي سنرسُمها... وفكَّرْنا طويلاً ولم نهتدِ إلى ما نريدُ. وأخيراً قالْ لي عيسى: (ما رأيُكَ في أنْ نَرْسُمَ مقاتلاً غاضباً، يطاردُ شارونَ ــ ينظرُ إلى الخلفِ وهو يَتَمَزَّقُ خوفاً وهلعاً) أعجبتْني الفكرةُ.. وعيسى ماهرُ في الرَّسمِ. وأعجبتني اللوحةُ بعد التنفيذِ. وتمنيتُ أنْ تكونَ لديَّ لوحةٌ مثلها.

قالْ لي عيسى وكأنَّه قرأ ما أتمناهُ في عينيَّ: (سأرسُمُ لك لوحة مثلها.. لكنَّني آملُ أنْ ترسمَ أنت لوحةً تعبِّرُ عن الفكرةِ نفسِها).

قلتُ له: (لا أستطيعُ) فذكَّرَني ببيتين من الشعرِ:

لا تقلْ لا أستطيع

لا تقلْ هذا محال

كيف ترضى أن تضيع

كغريق في الرمال!

قلتُ له: (ظهرتْ لديَّ فكرةٌ أنْ نرسمَ عدداً من أطفالِ العالم وهم يرجمون شارونٍ، عقابا لهُ على جرائمه الوحشية) فقالَ لي مشجعاً: (إنَّها فكرةٌ رائعةٌ... لكنَّها ستكونُ أروعَ بعدَ التنفيذِ) ولمْ ننمْ حتَّى أنهينا اللوْحتين. لم تعجبْني لوحتي.. لكنَّ عيسى فَرِحَ بها جداً... وقالَ لي: (أنتَ فنانٌ... لكنَّكَ لا تدري) وسألني: (لماذا ثقتُكَ ضعيفةٌ بما ترسم؟) لمْ أجدْ جواباً على سؤاله، على الرغم من أنَّهُ نَظَرَ إليَّ طويلاً ينتظرُ مني جواباً ما على سؤاله.

في اليوم التالي انطلقنا معَ الأستاذِ ماجد. وصلنا إلى منزلٍ قديم، كنَّا عشرة أطفال. فتحتْ لنا

البابَ عجوزٌ طاعنةٌ في السنِّ... نحيفةٌ، متماسكةٌ في وقفتها. رحبّتْ بنا وقبَّلَتْنا جميعاً... ثمَّ عانقها الأستاذُ. دخلنا جميعاً إلى غرفة واسعة وجلسنا حولَ طاولة مستديرة. سألَنا الأستاذُ: (هلَ عرفتم الجدة؟) أجابَ عيسى بسرعة (نَظُنُّ أنَّها والدتُك). تبسَّمَ الأستاذُ وقالَ: (إنها جدتي الحاجة أمُّ بشَّار) فنظرْنا إليها جميعاً بدهشة وإعجاب، إذ لا يبدو عليها أنَّها كبيرةٌ جداً. سألنا الأستاذُ (... من يحزر، كمْ عمرها؟؟) صَمَتْنا جميعاً والجدةُ تنظرُ إلينا كأنَّها تنتظرُ جواباً مناسباً. وبعدَ أنْ طالَ صمتُنا أجابَ الأستاذُ عن السؤال بنفسه عمرها أكثر من مئة سنة) ففاضت عيوننا بالدهشة والعجب، احتجت الجدة بلهجة مقدسية واضحة: (لا يا حبيبي ماجد.... لم أبلغْ التسعينَ بعد) عندئذ سألها الأستاذُ مازحاً (هل تحسبينَ عمرَك بالسنة القمرية أم بالسنة الميلادية؟). لم تجبْ الجدَّةُ. كانتْ

تنظرُ إليه بودٍّ وحبٍّ غامرين، ثم توجَّهَ إلينا الأستاذُ وقال: (كان زوجُها ــ جدي ــ من مرافقي عــزِّ الدين القسَّام ــ إمام المجاهدين. لو سألناكمْ سؤالاً: أينَ وُلِدَ الشهيدُ عزُّ الدين القسَّام، رحمه الله وطيّب ثراه؟) وعجزنا جميعاً عــن الإجابــة... فأجــابَ الأستاذُ عنا: (وُلد الشهيد القسام في مدينــة جبلــة التابعة لمحافظة اللاذقية السورية عــام ١٨٨٠... وكان في طليعة المجاهدين الذين قاتلوا الاستعمار البريطاني والصهاينة في فلــسطين... واستُــشْهِدَ البطلُ عزُّ الدينِ القسَّام في عام ١٩٣٥ في معركةٍ قُرْبَ جنين تسمى (أحراش يَعْبَد) في العشرين من تشرين الثاني... واستشهدَ إلى جانبه الشيخُ الحنفي من أرضِ الكِنانة وأخرون مــن أقطــارِ عربيــة أُخــرى، هبــوا للــدِّفاعِ عــنْ فلــسطينَ وأرضِ العربِ.... ثم أشارَ الأستاذُ إلى صورةٍ قديمةٍ معلَّقَةٍ على الجدارِ... وَدَعانا للاقترابِ منهــا؛ فاقتربنــا

وبدأنا ننظرُ إلى فارس يمتطي حصاناً عربياً والسيفُ إلى جانبه الأيسَرِ؛ والبندقية إلى جانبه الأيمن. رأيتُ الفارسَ ينظرُ إلينا مُبْتَسماً كأنَّه يُرَحِّبُ بنا. لكنَّني شعرتُ بأنَّ عينيه باشقانِ يبحثان في الفضاءِ عن صيدٍ ثمين. وأخبَرَنا الأستاذُ: (هذا جدي. زوجُها). وأشارَ إلى جدَّته. ثمَّ انتقلنا إلى صورةٍ ثانية لامرأة شابةٍ ليخبرَنا الأستاذُ: (هذه هي جدتي في شبابِها... وسنحتفلُ اليومَ بعيدِ ميلادها) ثم عانقها وقبَّلَها مهنئاً. وعدْنا إلى الجلوسِ. كانتْ الجدَّة قد وضعتْ إبريقَ الشاي على الطاولة وإلى جانبه صحنٌ كبيرٌ طافحٌ بالكعك. لمْ تنقطعِ الجدةُ عنِ الترحيبِ بنا. وكنتُ أتأمَّلُ حركاتها وهي تصبُّ الشايَ... وتقدم الكعكَ لنا. لم نعرفْ عُمْرَ الجدة، لكنَّها كانتْ متماسكة في حركاتها وحديثها. قالَ لَها الأستاذُ: (يودُّ الأطفالُ أن تحكي لهم عن عزِّ الدين القسَّام... وعنْ جدِّي...) تنهدتْ بعُمْقٍ

وسحبتْ نَفَساً عميقاً وهي تقولُ: (ذكرياتٌ أصبحتْ بعيدةً. أرى الآنَ أطفالنا ــ طيورَ الجنَّة... رجالَ المستقبل... منذُ فتحتُ عينيَّ على الحياةِ ونحنُ نقاتلُ الإنكليزَ والصهاينة. رحمه الله أبو بَشَّار ــ زوجي... جاءني في الليلِ ــ بعد منتصف الليل بكثير.. كان يوماً ممطراً.. نظرتُ إلى عينيه؛ كانتا حمراوين.. يَشْتَعِلُ غَضَبا وحُزْناً، سألته ما بك يا (بو بشَّار) خيراً؟.. فقالَ لي والغَصَّةُ تحرقُ صدرَهُ: لقد استشهدَ القسَّامُ. ثم بكى طويلاً. ولم يخرجْ إلاَّ في اليوم التالي. وكانَ عندي سبعة أطفال.. قبّلَهُمْ جميعاً كعادته.. وخرجَ ولمْ أرَه ثانية.

وعْكَةٌ صحيةٌ

عُدْنا إلى دارِ أبناء الشهداءِ، لكنَّ الجَدَّةَ أُمَّ بَشَّار، ظَلَّتْ تطوفُ في فضاءِ روحي، وتسيرُ إلى جـــانبي، في كثيرٍ من الأحيان، وتجلسُ قُرْبي عندما أحَـــضِّرُ دروسي، وتساعدُني إذا ما احتجتُ إلى مُساعدة.

يُراقبُني عيسى، ويبتسمُ عندما يَشْعرُ أني أفكِّـــرُ

بالجدةِ أمِّ بشَّار، وأتحدثُ إليها في خيالي، وكأنَّها إلى جانبي حقيقةً. كانتْ الجدةُ أمُّ بشارٍ قليلةَ الكلامِ، بـــلْ إنَّها تميلُ إلى الصمْت. تراقبُنا بشَغَف وتسمعُنا بقلب يَنْفَطرُ حُبَّاً وإعجاباً وشَوقاً. فـــي تلـــك اللحظـــات، تصورتُ أنَّ الحبَّ بحرٌ واسعٌ لا تحدُّهُ حدودٌ، والجدَّةُ بحّارٌ، يتهادى بقاربِه الشراعي، المزينِ بألوانِ قوس قزح، على أمواجه الهادئة الحالمة، ويغنِّي للكائنـــات أجملَ أغانيه السَّاحرَة. أمَّا أنا، فقدْ صرتُ نوْرَســـاً، يرافقُ الجدةَ في رحلتها الرائعة تلك. أخـــذَني إليـــه أميرُ أحلامي. ودَّعَتْنا الجدة أمُّ بَشار كما تـــودِّعُ الأمُّ أبناءَها إلى المدرسة. وَدَعَتْ لنا بالتوفيقِ والنجـــاحِ. ورَفَعَتْ يديْها إلى السماء تَتَضَرَّعُ إلـــى الله: (ربَّ لا تحرمني منهمْ يا رب)... وهأنا أفكِّرُ بها قبلَ النـــومِ طويلاً... وأسرحُ بأفكاري بعيداً، فأتـــصورُ نفـــسي مكانَها عندما جاءَها زوجُها أبو بـــشار يبكـــي ألمـــاً وحزْناً على رحيلِ إمامِ المجاهدين عزُّ الدين القسَّام،

بعد معركة طويلة قاسية ضدَّ المستعمرين. تُرى، إلى أينَ مضى في تلكَ الليلةَ الماطرةَ، بعدَ خروجه من بيته؟ وهلْ نجحَ في تحقيقِ ما خرجَ في سبيله؟؟ كيفَ ودَّعَتْ أمُّ بشار زوجَها في آخرِ لقاء جمعهما؟ أسئلةٌ عديدةٌ كانتْ تحومُ حولَ رأسي كخليةِ نَحْل. وهلْ تنتهي حكايةُ الجدَّة بيومٍ أو يومين أو ثلاثة؟ وأنا أعرفُ أنَّ الأستاذَ ماجد لن يجيبني عن هذه الأسئلة، إذا سألتُه إيَّاها. فَمنْ أقواله المأثورة: (السؤالُ المناسبُ في الوقتِ المناسبِ). لَكنَّهُ ينظرُ أحياناً في عيونِنا، ويميلُ برأسه يمنةً ويسرةً وكأنَّه يَبْحَثُ عن شيءٍ في مآقينا، حتَّى يَعْثُرَ على السؤال، ويسْحَبُهُ كما تُسْحَبُ الشعرةُ من العجين، ويجيبكَ عليه من غيرِ أن تدري. كيفَ أصفُكَ يا أستاذُ ماجد؟ يكفيكَ فخراً أنَّكَ حفيدُ أمِّ بشَّار (زوجةُ رفيقِ عزِّ الدين القسَّام في الجهاد). وتبدو لي أحياناً كطفل، أصغرَ سناً منّا، يحتاجُ للرعايةِ والعطفِ والمحبةِ

واللَّعبِ. وتارة تبدو لي حكيماً بلحيةٍ طويلةٍ بيــضاءَ كالثلجِ، تتوكأُ على عصاكَ في مرجٍ أخضرَ، ترافقكَ أسرابُ العصافيرِ جذلى، وتستقبلُكَ الأزهارُ نــشوى. وتارةً أراكَ قائداً عسكرياً تهتزُّ الأرضُ تحتَ أقدامك الواثقةِ. وتارةً أراكَ غيمةً تبحثُ عن روضة لتعــانقَ براعمها وتغْسلَ عنها غبارَ التَّعبِ والأحزانِ. قــالَ لي صديقي عيسى: (ما رأيكَ فــي أن نطلــبَ مــن الأستاذ ماجد أنْ يأخذنا ثانيةً إلى الجدة؟) كدتُ أطيرُ فرحاً لهذا الاقتراحِ... وبعد نهايةِ الحصَّة الأولــى، تقدَّمْنا من الأستاذ ماجــد وســألناه أنْ يــسمحَ لنــا بطلَب،فرد علينا مباشرةً: (الجدةُ أمٌّ بــشار تقــرئكمْ السلامَ جميعاً) وأشارَ بإبهامه محذِّراً: (... وتذكِّركُمْ بأنَّها لا تحبُّ الكسالى) وانصرفَ قبْلَ أنْ يسمعَ كلمةً واحدةً منا. تأمَّلني عيسى طويلاً، ثمَّ صــفّقَ بكفَّيْــه صفقةً واحدةً وقال: من قالَ هذه العبــارةَ: (يفْهَمُهــا وهي طائرةٌ أي قبــلَ أنْ تَحــطَّ علــى الأرضِ)؟.

والأستاذُ ماجد (يفهمُها قبلَ أنْ تطيرَ). وفي الحصَّةِ الأولى من صباحِ اليومِ التالي، وقفَ الأستاذُ ماجدَ وتفحَّصَنا بنظراتٍ عميقةٍ ونحنُ جالسون على مقاعدنا. ومن عادتِه أن يبدأ الدرسَ مباشرةً... لكنَّه في هذه المرة نَظَرَ إلينا طويلاً كأنَّهُ كانَ يبحثُ عن كلماتٍ مناسبة. كانَ يحكُّ فوْدَيْهِ وهو ينظرُ إلينا. وأخيراً ألقى علينا تحيةَ الصباحِ ثانيةً وقالَ: (أصدقائي وأحبائي، أبناءَ شهدائنا الأبرار. أنتمْ أمانةٌ في أعناقنا. ونحنُ ندرسُ كلَّ خطوةٍ، دراسة طويلة ودقيقة، للحفاظِ على حياتِكُم، قدوةً، يُضرَبُ بها المثلُ، في الجدِّ والاجتهادِ. ومن لا يريدُ أن يكونَ قدوةً، فلا يستحقُ أنْ يكونَ ابنَ شهيد. وابنُ الشهيدِ مرتبةٌ لا يرتقي إليها إلاَّ الأخيارُ الأقوياءُ الأبرارُ. فلنكنْ أوفياءَ لشهدائنا.. وفهمكُم كفايةً).

لم أستطعْ تناولَ طعام الغداء. وفي المساءِ

شعرتُ بإرهاقٍ شديد. لمسَ عيسى جبْهَتي وقــالَ: (حرارتُكَ مُرْتَفِعَةٌ يا أحمدُ...).. قلتُ: (لا بــأسَ.. سأتَحَسَّنُ.. وكما كان يقول جدي: (شدة وتــزول) لكن عيسى لم يطمئن على وضــعي فهــرع إلــى الإدارة وأخبرها وعاد .. ثم أخذَ بيدي وسارَ بــي إلى السرير.. وأجبرني على الاستلقاءِ في السرير. أغمضتُ عيني وكدتُ أغفو. سمعتُ خطوات.. ثم رأيتُ الطبيبَ. شعرت بارتفاعِ حرارةِ جسمي. ولا أذكرُ كيفَ نمتُ في تلك الليلة. استيقظتُ. كانــتْ الساعة العاشرة صباحاً. أوَّلَ مرَّة أتأخرُ فيها عــنِ الحصَّةِ الأولى. يبدو أني نمتُ عميقاً، ولمْ يَقْتَــرِبْ مني أحَدٌ، حتَّى أمير أحلامي. لا أذكرُ من قال لي:

ــ الأحلامُ لا تقتربُ من المرضى.

وأنا أقول:

ــ ما أتعسَ النوم بعيداً عن أميرِ أحلامي!

الطفل العجيب

دخلَ الأستاذُ ماجد إلى الصف برفقة طفل ظننَّا أنَّهُ في الصفِّ الثاني أو الثالث. أَلقى الأَستاذُ علينا تحيةَ الصَّباحِ، ونظرَ إليَّ بعينين طافحتين بالحنان وقال: "الحمد لله على السلامة يا أحمــدُ" وابتــسمَ لي.. ثمَّ توجَّهَ بالحديثِ إلينا جميعاً وَيَدُهُ على كَتِفِ

الطفل وقال: "زميلكمْ الجديدُ سامي. نرحِّبُ به جميعاً. سيكونُ أخاً وصديقا حميما لكم جميعا! "ثم دعاهُ إلى الجلوسِ، فَجَلَسَ إلى جانبي، بعدَ أنْ رَمَقَني بنظرة فاحصة خاطفة. كانَ سامي شُعْلَةً من الذكاءِ والحيوية في الدرسِ. سَحَرَنا برشاقة أجوبته السريعة عن أسئلة المُعَلم. فرحْنا جميعاً بسامي الذي بدا لنا أصغرَ سنًّا منَّا لكنَّهُ تَبَيَّنَ أنَّهُ أكبرُ عقلاً وتجربةً. وبعدَ الغداء، جلسنا جميعاً حولَ سامي. إنَّهُ هزيلٌ جداً.. لكنَّ حديثَهُ يخرجُ من صدرٍ عامرٍ بالثِّقَةِ والإيمانِ. حكى لنا أكثرَ من حكايةً عن معارك خاضها مع زملائه ضدَّ جنود الاحتلال الصهيوني. كان ينظرُ إلينا ليرى إذا ما كنّا نرتابُ في ما يحكيه. نهضَ وقالَ متحديا بودٍّ: "من منكم يستطيعُ مصارعتي؟". حاولَ ثلاثةٌ منَّا أن يتغلبوا على سامي،فلمْ يُفلِحْ منهم أحدٌ. ثمَّ نظرَ سامي إلينا وقالَ: "سأقفزُ الآن، فليجرب أحدكم أن يقفزَ

المسافةَ التي أقفزها. حاولنا جميعاً فلم يُفْلحْ أحدٌ منَّا. لقد أقنعنا سامي بأنَّه طفلٌ عجيبٌ. سألته: "كيفَ أصبحتَ بهذه القوة؟" قال: "أحبّبْتُ الرياضةَ.. وأحبَبْتُ الجمبازَ قبلَ أنْ أدخلَ المدرسة. أحببتُ القفزَ إلى الأعلى. ثم كنت أتَدَرَّبُ على صنعِ المقاليعِ والرميِ بها على مسافة بعيدة، حتَّى أصبحتُ أصيبُ الهدفَ بدقَّة.

أدركَنا الوقتُ دون أن نشعرَ، وجاءَ وقتُ العشاءِ. جلسنا جميعاً فخورين فرحين بصديقنا الجديدِ، ننظرُ إليه بإعجاب وغبطة، وكلٌّ منا يأمَلُ أن يتعلَمَ منهُ شيئاً مفيداً. لكنَّ سامي لم يتناولْ من طعامِ العشاءِ إلاَّ القليل القليل. سألناهُ: "لماذا لم تأكلْ يا سامي؟ هل أنت مريضٌ؟" أجابَ بعفوية لكنْ بألمٍ: "عندما ابدأ الطعام أرى أمي أمامي؛ أنظرُ إليها، وتغمرُني رائحتها، ونادراً ما أمسكُ

نفسي عن البكاءِ وأنسى كلَّ شيء حولي".. واغرورقتْ عيناهُ بالدموعِ. عندئذ شعرنا بأنِ وراءَ سامي تكمنُ مشكلةٌ كبيرة. قلتُ له مشجعاً: "كلنا هنا نعيشُ المشكلةَ نفسَها. لقد قتلَ الصهاينة أمَّهاتنا وآباءَنا وحرمونا منْ أجمل ما في الدنيا. فمنْ منَّا ينسى أمَّه ورائحتها ونورَ عينيها؟؟ "وكادتْ العبراتُ تغلبني، لكنَّني تماسكتُ، كأنَّني أقومُ بدورِ الأستاذِ ماجد، وشعرتُ أنني أصبحتُ كبيراً، أقومُ بعملٍ مهمٍ. عانقتُهُ وتابعتُ كلامي متماسكاً: "كلُّهُم في صدورنا وأرواحنا. كلَّ يوم تناديني أمِّي، مثلما كانتْ تناديني، قبلَ أنْ يغتالها الأشرارُ الصَّهاينةُ، وتذكِّرُني بوصاياها، وتعانقني، ثم ترفعُ يدَها إلى السماء وتدعو لي، وهي تطيرُ كحمامةٍ بيضاءَ إلى أنْ تختفي في الفضاء". نظرتُ إلى عينيه. كانتا حمراوين جافتين من الدمعِ. هلْ جفَّ الدَّمْعُ فيهما، أم كان لكلامي تأثيرٌ إيجابي على سامي؟؟

كان علينا أنِ نحضِّرَ واجباتنا المدرسية. فنحن ــ تلاميذ الصفِ الخامس، نجتمعُ حــين نحــضِّرُ واجباتنا المدرسية؛ نساعدُ بَعْضَنا بعْضا، ونَطْمَــئِنُّ على استعدادنا لليوم التالي. كانَ الإرهاقُ واضــحاً على سامي. ابتعد عنَّا، ومضى إلى سريره. تبعتُهُ بعدَ لحظات. كانَ يغطُّ في نومٍ عميقٍ. عدْتُ إلــى زملائي وتابعنا التحضيرَ، حتى جاءَ وقتُ النــومِ، فمضينا إلى أسِرَّتنا. كان سامي يحلِّقُ فــي "ســابع نومة"

نامَ زملائي وبقيتُ صاحياً لا يقربنــي النــومُ، أفكِّرُ بسامي. لابدَّ أنَّ وراءه حكاية طويلة. ومَــنْ منَّا ونحن في فلسطين، لا يحمــلُ ألــفَ حكايــة وحكايةٍ؟! وهلْ كلُّ الحكايات متساوية؟؟ فــي كــلِّ الحكاياتِ ينتصرُ الأبطالُ، ويموتُ الأشرارُ، ويعودُ الحقُّ لأصحابه. فاطمئن يا سامي، سننتــصرُ، إن

شاء الله!

استيقظتُ صباحاً. نظرتُ إلى سريرِ سامي، فلم أرَهُ في السريرِ. بحثتُ عنه في كلِّ مكان، فلم أعثرْ له على أَثَرٍ. تُرى إلى أينَ مضيتَ يا سامي؟! وهل حصلَ مكروهٌ لسامي، ولم نشعرْ به ونحن نيامٌ؟؟. انتظرنا حتى دخلَ الأستاذُ ماجد الصفَّ. وقبلَ أن يلقي علينا تحيةَ الصباحِ، بحثَ بعينيه عن سامي. سألَ برعب: "أين سامي؟؟" ثم توجَّهَ بسؤاله إلي، كأنَّه يسألُ عنْ أمانة غالية أوْدَعَها عندي: "أينَ سامي يا أحمد؟؟" وقعَ السؤالُ في صدري كتلةً من نار. خرجَ الأستاذُ من الصف غير آبهٍ بجوابي.

انتظرنا طوالَ اليومِ ولمْ يعد الأستاذ. كانَ يوماً صعباً وثقيلاً، شعرْتُ فيه أنِّي مُكَبَّلٌ في مكانٍ مظلمٍ. كنَّا ننتظرُ بَصيصَ أملٍ يشفي نفوسَنا

ويطمئننا على سامي. وجاءَ وقتُ النومِ ولــمْ يعــدِ الأستاذُ ليطمئننا على سامي. فقدْ كانتْ قلوبُنا كلُّها عند سامي. لا أدري كيفَ خطفني مــلاكُ النــومِ، وأخذَني بعيداً. رأيتُ سامياً على سفحِ جبلٍ أخضرَ، تحومُ فوقَهُ طيورٌ بديعةٌ. رآني فلوّح لي بكلتا يديه مرحِّبا. قفزَ وطارَ، يحلِّقُ فوقَ رأسي. ناديته بكــلِّ ما أملكُ من قوة. استيقظتُ على صــوتِ عيــسى وهو يهزُّني لأصحو من حُلمي.

لم يعدِ الأستاذُ ماجد إلاَّ في الــساعة الثانيــة عشرة ظهراً. لمْ أرَه حزيناً بهذه الصورة من قبل. أيقنا أنَّ مكروها أصابَ ساميا. دعانا الأستاذُ إلــى غرفةِ الصفِّ. جلسَ خلفَ طاولته وراحَ يحدِّقُ فينا بحزنٍ. شعرتُ أن الكلمات تقفُ في حَلْقــه، تــأبى الخروجَ. ثمَّ قالَ بعد تفكيرٍ طويلٍ: "لا حــولَ ولا قوةَ إلاَّ بالله. لقدْ وجدْنا سامي على قبْرِ أمِّهِ مُتوفى.

كان سامي نابغةً. وكانَ من أشجعِ المقاتلين. وكانَ إذا ضربَ بمقلاعه أصابَ الهدفَ بدقــة... وذاتَ يومٍ طاردَهُ الجنودُ الصهاينة حتَّى دخــلَ منزلــه، فرموه بقذيفة دبابة، فلم ينجُ من عائلته إلاَّ هو، لكنَّه أُصيب بهزَّة نفسية حــادة. كــان يــصرخُ دائمــاً وينادي: "أمي!! أمي!" حتّى في النوم. وحين تماثلَ للشفاء، طلبَ أن يأخذوه إلى قبرِ أمِّــه.. فأخــذناه إليه. وحين رأى قبرَ أمِّه أُغْمي عليه وعادتْ إليــه الأزمَةُ منْ جديد. وعدنا إلى علاجه. ظننــا أنَّــه تماثلَ إلى الشفاءِ، وتمنينا أنْ يَجِــدَ بيــنكمْ الأهــلَ والأصدقاءَ، ليعودَ إلى الحياة مــن جديــد، لكــنَّ الأقدارَ كانتْ أقوى منَّا بكثير". ثم تنهدَ بعمْقٍ وقالْ: "لقد كانَ سامي طفلاً يثير الإعجابَ في كلِّ شيء، حتَّى في حبِّه لأمه.. فلم يقوَ على العــيش بعيــداً عنها..."

****

في اليومِ التالي على رحيلِ سامي، دخلَ الأستاذُ ماجد إلى الصف، وقالَ لنا: "كان رحيلُ سامي (رحمه الله) أليماً علينا جميعاً. ولكنْ، علينا أن نخرجَ من الحزنِ والألمِ، ونُكَفْكِفَ دموعنا حتَّى نرى طريقَنا بوضوحٍ". ثمَّ صمتَ لحظات، وتابعَ وقدْ أشرقَ وجْهُهُ بأمَلٍ ساطعٍ: "فنحن في معركةٍ، والجراحُ غزيرة وأليمةٌ. إنَّها، من أقسى معاركِ التاريخِ... والحقيقة، فقد كان رحيلُ سامي، من أقسى الجراحِ التي واجهتُها في حياتي". ثم كتبَ هذه العبارة: "تقول لنا التجاربُ: "لا تحاربْ وأنت غاضبٌ! لا تحاربْ وأنت حزينٌ باك!". صديقي عيسى بقي أسيرَ حزنٍ شديدٍ فترةً طويلةً، وكأنَّه لم يسمعْ ما قالَهُ الأستاذُ. سألني غيرَ مرَّة: "هلْ تعتقد أنَّ سامي كان يحبُّ أمَّه أكثرَ منَّا؟؟". لمْ أستطعْ

الإجابةَ. ولم أفكرْ بهذا السؤال. لكنِّي بدأتُ أفكِّرُ بهذه الأفكار: "هل يُمْكِنُ أنْ نقيسَ الحبَّ، أو نزينَهُ؟؟ وما هو الحبُّ؟؟ ومن أين ينبعُ هذا الحبُّ؟ وإلى أينَ يأخذنا؟؟".

أسئلةٌ عديدةٌ، تدور حولَ الحبِّ. والسؤالُ الأهم: "هل يمكن أن يكونَ الحبُّ ضاراً". و سؤالٌ آخر: " إذا كنَّا نحافظُ في الحياةِ على كلِّ شيء غالٍ وثمين، فكيفَ نحافظُ على الحبِّ، صحيحاً معافًى؟! وهلْ كلُنا، يحافظُ على هذا الغالي الثَّمينِ؟ ــ وهلْ كلٌّ منَّا يصونِ الحبَّ، ويعطيه حقَّهُ من الرعاية؟؟" وتصورتُ أمامي شجرةً باسقةً خضراءَ، تسحرُ الألبابَ طافحةً بأينعِ الثمارِ، على شاطئ نهرٍ دافقٍ، ومرْجٍ أخضرَ بهيجٍ، تؤمُّها العصافيرُ، من كلِّ حدبٍ وصوب، وتغني لها النجومُ أجملَ أغانيها، ويعانقُها البدرُ ويناغيها

بضيائه، كأنَّهُ ثَغْرُ والدة حنون. وتصورتُ شجرةً أُخرى، قزمةً، يابسةً، في أرضٍ جرداءَ قاحلة، كأنَّها شَبَحٌ مُخيفٌ، تندبُها النجومُ، وتبكي عليها الأقمارُ. وأنا أشبِّه الحبَّ بتينك الشجرتين، فحبٌّ يشبهُ الشجرة الأولى، وآخر يشبهُ (الشجرةَ) الثانية.

حاولتُ أن أقنعَ عيسى بأفكاري هذه، لأخرِجَهُ من حالة الحزْنِ التي ألمَّتْ به بعدَ رحيلِ سامي (رحمه اللهُ)، لكنَّهُ كانَ عنِّي في وادٍ بعيد. أصبحَ عيسى يسيرُ ويأكلُ ويتحدَّثُ كإنسانٍ آليٍّ. فكيفَ أُنْقذُ عيسى من هذا الحالةِ الصعبة؟؟. حتَّى الأستاذَ ماجد لمْ ينتبه إلى حالةِ عيسى. فهلْ كانَ الأستاذُ ماجد أيضاً، في حالة شبيهةٍ بحالةِ عيسى، لكنَّها لا تظهرُ عليه بوضوح.

خطرَ على بالي ذاتَ يومٍ أنْ أسألَ الأستاذَ: "كيفَ استطاعَ سامي أن يخرجَ من الدارِ ويصلَ

إلى قبرِ أمِّه؟؟" لكنِّي رأيتُ هــذا الــسؤالَ يحمــلُ الحزنَ والألمَ.. قلتُ لنفسي: "فكِّرْ يا أحمد بعطــرٍ يعيدُ للنفوسِ أجواءَ الفرحِ! فكِّرْ بنهرٍ نــسبحُ فيــه، يغسلُ عنَّا غُبَارَ التعبِ والكآبة. ابحثْ يا أحمد في فضاءِ روحِك عن غيمــة، تحاورهــا، وتــستمتعُ بأغانيها، وتَسمعَها أغانيك، حتَّى تطيــرَ إليهــا، أو تهبطَ إليكَ، لتروي براعمَ الرُّوحِ العطشى. اقتربتُ من عيسى وقلتُ لــه: "أتخيَّلُ فراشةً تطيرُ أمامي، وتهمسُ في أذني: "شُبِّيكْ لُبيكْ يا أحمــد! اطلــبْ وتمنَّ يا أحمد!". قالَ بفضولٍ فاترٍ: "إذن ما هــي المشكلةُ؟؟" وأضافَ مُداعباً: "ولا تنْــسَنا!". قلــتُ مازحاً: ".. وأنا في حَيْرَة. فمنْ أينَ أبدأ. أشــرتُ إلى غيمةٍ واسعةٍ كبيرة ملوَّنة في السماء، وقلــتُ: "ما رأيكَ لو طرْنا إلى تلكَ الغيمة؟؟ "سألني: "ماذا نفعلُ هناك؟؟" قلتُ مُحتجــاً: "ألمثلنــا يقــالُ هــذا الكلامَ؟؟ "سألَ: "ولماذا لا يُقالُ مثلُ هذا..؟". قلتُ:

"في طريقِ (الشاطر) تُزْهِرُ أعمالٌ وأعمالٌ ، وأمامَ الكسولِ تتراكم الأوحالُ". قالَ وقدْ طفــحَ وجهُــهُ بأريجِ التحدي!: "أرني زهرةً واحدةً من فــضلك". وقبلتُ التحدي بارتياح. قلتُ: "حسنٌ. أودُّ أنْ أطيرَ إلى هذه الغيمة أسبحُ فيها؛ أرافقها فــي ســفرها. سآخذُ معي دفتراً، أدوِّنُ فيه كلَّ همْسَة، كلَّ حركة. أودُّ أنْ أستمعَ إلى نبضِ قلبِها، وخَفْقِ رئتيهــا. أودُّ أنْ أتوسَّلُ إليها أن تبحثَ عنكَ وتَخطفَكَ وأنتَ نائمٌ، وتَأْخُذَكَ إلى..." نظرَ إلي باحتجاجٍ ولــومٍ وقــال: "كيف تريدُ من الغيمةِ أنْ تخطفني وأنا معك (يــا شاطر؟)

لغة الغيوم

لمْ ينسَ عيسى حكايةَ طيرانه إلى الغيوم. كانَ يحدِّثُني عنْها بينَ الفينةِ والأُخرى، ويسألُني أسئلةً لا أستطيعُ الإجابةَ عنها. سألني: (لماذا لا يكونُ الطيرانُ إلى الغيوم حقيقة؟؟). قلتُ: (الغيومُ تأتي إلينا بنفسِها، وتهطُلُ علينا غيثاً يروي الزرعَ

والنفوسَ). قالَ باحتجاجٍ: (لكنَّ الأرضَ تعاني من قلَّة المياهِ العذبْةِ ــ وتابعَ بأسى ــ وكوكبُنا غنيٌّ جداً بالمياه.... حتَّى في البحارِ يوجدُ العديدُ من الأنهارِ العذبْة. فلماذا يعاني كوكبُنا من الجفافِ والقَحْطِ؟؟). سألتُهُ مازحاً: (أسئلتُكَ من العيارِ الثَّقيلِ.. فما هي علاقتُها بطيرانك إلى الغيوم؟؟ كنَّا نحلمُ يا رجل). قال: (وعباسُ بن فرناس، كان يحلمُ أيضاً.... وكانَ مؤمناً بأنَّ الإنسانَ قادرٌ على الطيران) قلتُ مُتصنِّعاً الحزنَ والألمَ: (لكنَّهُ، مسكينٌ دفعَ حياتَه ثمناً لأحلامه). رماني بنظرة عتابٍ حادة وقالَ: (لماذا لا تقولُ إنه فتحَ أمامَ البشرِ آفاقَ عصرٍ جديدٍ ــ عَصرْ الطيرانِ والفضاء؟؟) وشعَرْتُ بأنَّ عتابَهُ تحوَّلَ إلى لومْ، كأنَّهُ وَجدَني متلبِّساً بجريمَة لا تُغْتَفرُ وهو يقولُ: (منذُ متى وأنتَ تُفكِّرُ بهذا المنْطق؟ فمنْ يُضحِّ بنفسه في سبيل الناس، يكُنْ عندك مسكيناً يا أحمدُ؟؟) عانقتُهُ طويلاً وأنا أربتُ على ظَهْرِهِ وأقولُ مُعْتذِراً:

(ألمْ تشعرْ بأنِّي كنتُ أمزحُ؟؟) ثمَّ دخلنا إلى الدَّرسِ. سألني الأستاذُ بسرورٍ واضحٍ: (ما الذي يجري بينكَ وبينَ عيسى؟؟ أكادُ أسمعُ بينكما أحاديثَ ساخنة. شاركونا، إذا كانَتْ هناكَ مَوْضوعات مُهمّةٌ!) قلتُ ببساطة وعفوية: (حكاياتٌ وأحلامٌ وآمالٌ!) أشرقَ وجهُ الأستاذ بابتسامة واسعة، وقال مشجِّعاً: (ممتاز! رائع! وهل هناك أجمل من الحكايات والأحلام؟!). قلتُ وأنا أتغلَّبُ على موجةِ ضَحك شديدة: (كلُّ ما في الأمرِ أنَّنا ــ أنا وعيسى، طرَنْا إلى غيمة كبيرة، رأيناها في الفضاء... أعجَبَتْنا). سألَ الأستاذُ بفضولٍ يطفَحُ بالفرَحِ: (جميل! جميل! رائع! وماذا رأيتما هناك؟؟). يا إلهي! شعرتُ وقدْ عادَ الأستاذُ طفْلاً مثلنا، يحلَمُ بالطيرانِ إلى عالمِ الغيوم. نَظَرَ الأستاذُ إلى عيسى وقالَ: (نريدُ أنْ نَستمعَ من عيسى).

كان عيسى يحاولُ كبْتَ موجةٍ ضحكٍ قوية.

كانتْ عيناهُ تدْمعَان من شدة الـضَّحك، والأسـتاذُ ينظرُ إليه متوردَ الخدَّين من شدَّة الفـرَح. أخيـراً تماسكَ عيسى وقالَ: (... رأيـتُ أحمـدَ يـسْتَعِدُّ للطيران فَتَشَبَّثْتُ به، فطارَ بي إلى غيمةٍ كبيرة... قال: إنَّهُ يريدُ أنْ يَتَعَلَّمَ لغةَ الغيومِ...).

قال الأستاذُ: (حسناً! هو يريـدُ أنْ يـتعلَّمَ لُغَـةَ الغيومِ، وأنتَ؟!). قالَ عيسى بمرَحٍ: (لقد طارَ بي... إلى الغيمة وتركَني هناك.. وعاد..). احتجَّ الأسـتاذُ بلُطْفٍ وقالَ: (فهمْنا قـصدَكَ، لكنَّنـا بحاجـةٍ إلـى توضيحٍ أكثر. أعطنا زُبْدَةَ الكلامِ). عندئذٍ بدأَ عيسى يُجيبُ بهدوء ورصانة: (بينَ الجدِّ والمُـزاحِ، وبـينَ الخيالِ والواقعِ وبينَ اليَقْظَةِ والمَنامِ ــ سألْتُ نفـسي: لقد استطاعَ الإنسانُ أنْ يَتَحَكَّمَ بالصَّوت والصُّورة ــ أقصدُ التلفازَ والمذياعَ، ويلتقطُ الصُّورَةَ في المكـانِ الـذي يُريـدُه... واسـتطاعَ الإنـسانُ أن يـصنعَ

الصواريخَ الفتَّاكَةَ، يُصيبُ بها الهدفَ بدقَّــة فائقــة، ليَقْتُلَ الأبرياءَ، ولم يستطعْ هــذا الإنــسانُ الــتَّحَكُّمَ بالغيومِ وتوجيهها إلى الأماكنِ العطشى؟؟... لمــاذا نرى أماكنَ تعاني من فيضاناتٍ مــدمِّرَة، وأمــاكنَ تعاني من القَحْطِ والجَّفافِ القاتلين؟؟ ــ وعادَ عيسى إلى المرحِ والمُزاحِ ــ فقلتُ لنفسي: (هيّا يا عيسى، تعلَّمْ لغةَ الغيومِ مع أحمدَ كي تطلبَ مــن الغيــومِ أن تبحثَ عن الأماكنِ العطــشى... ولا تحرمنــا مــن جودها ورائحتها المنعشة..) عندئذ رفعَ الأستاذُ يــدَهُ لنستمعَ إليه، وقال: (هل تعلمــون أنكــم تطرحــون مسألة هامة جداً.. أنا أعتقدُ أنَّ الغيومَ تبحــثُ عــن الأشجارِ، وعن المــروجِ، وعــن الزهــورِ وعــنِ السنابلِ، وعن الغاباتِ.. لتسقيها وترويها.. ولكــنْ.. عندما يقطعُ الإنسانُ هــذه الغابــات ويــسيءُ إلــى الطبيعة، فإنه في الوقت نفسه، يسيءِ إلى الغيــومِ.. فأين تذهبُ الغيومُ؟؟ أعتقدُ أنَّ من حقِّ هذه الغيوم أن

تهرُبَ.. أو أنْ تأخذَ على خاطرِها.. مـــا رأيكُـــمْ؟؟ لماذا لا نتعاملُ مع الغيـــومِ والأشـــجار والطيـــور والأزهارِ، على أنَّها أرواحٌ حيَّةٌ، تبحث عن الأماكن التي تحبُّها؟؟.. كيفَ يأتي إلينـــا الطيـــرُ إذا قطعنـــا الأشجار؟؟ وكيف تأتي الغيومُ إلينا إذا كنا نسيء إلى كلَّ ما هو جميل في الطبيعة؟؟ والطبيعة هي حبيبـــة الغيومِ.. وكلُّ حبيبٍ يبحـــثُ عـــن حبيبـــه! ألـــيسَ كذلك؟؟) لم أرَ عيسى مرحاً مثل هذا المرح، علـــى الرَغْمِ من أني رأيتُ الحديثَ عن هـــذا الموضـــوعِ جدياً، ويحتاج إلى تفكير.. ولـــمْ أرَ الأســـتاذَ فرحـــاً متفائلاً إلى هذه الدرجة، فقال معبراً عـــن إعجابـــه الشديدِ بنا: (والله يا جماعة.. لستما ســـهلين.. لقـــد ذكَّرتماني بطفولتي وأحلامي.... فقدْ كنـــتُ مثلكمـــا أسرحُ بأفكاري، في اليقظةِ والنومِ مع الغيومِ، وأرى فيها خرافاً وطيوراً وعصافيراً وأشجاراً ومروجاً... وذات يوم، رأيت ثوراً مزركشاً رائعاً...فلعبتُ معـــه

طويلاً... وانضمَّ إلينا طاووسٌ جميلٌ، وراحَ يلعبُ معنا. كنَّا نطيرُ من مكان إلى آخر كما تطيرُ الفراشاتُ بيسر ورشاقَة.. ثم أعطاني الطاووسُ شريطاً فضياً لأَربطَ الثورَ.. فربطتُه وسرتُ به إلى شجرةٍ في البستانِ وربطتُه إليها... وأذكرُ أني استيقظتُ متأخراً في الصباح، على غيرِ عادتي.. ومضيتُ إلى المدرسة وأنا أفكرُ بالثورِ.. عدتُ إلى المنزلِ فرأيتُ ثوراً يشْبهُ الثورَ الذي لعبتُ معه في الأحلام. أذكرُ أنِّي كنتُ في الصف الأوَّل. اقتربتُ منْهُ بحَذَرٍ فراحَ يهزُّ رأسهُ. دنا أبي مني ووضَعَ يدَهُ على كَتِفي وقالَ: (هلْ أعجبَكَ الثوْرُ؟ اشتريتُه لك اليومَ من السوقِ. سنذبَحُه في العيدِ. ابتعدْتُ عن أبي وأنا أبكي.. وارتفعت حرارتي ومرضتُ. ولمَّا عرفوا السبب بعدَ جهد جهيد، تعهَّدَ والدي أن يحافظَ على الثور لي ــ أنا لألعبَ معه. وفي اليومِ الذي تماثلْتُ فيه للشفاء، هاجَمَنا جنودٌ من مستوطنةٍ

صهيونيةٍ كانتْ قريبةً من منزلنا، واقتربَ اثنان منهم ليأخذا الثورَ، وبقي الآخــرون شــاهرين أسْــلحَتَهُمْ مهدِّدينَ والدي بإطلاق النارِ إذا تحرَّك. حاولَ أَحــدُ الصهاينة فكَّ الثَّور فنطحَهُ الثورُ نطحةً رمتْهُ علــى الأرضِ فاقدَ الوعي.. واستدارَ إلى الثــاني لينطحــه فهرَبَ.. ومضى الثورُ يهاجم الجنودَ بشراسة وعُنْف ولمْ يسمحْ لهمْ بــالاقترابِ منــهُ، إلاَّ بعــدَ أنْ أردوهُ قتيلاً، ثم حملوا رفيقهمْ ومضوا خائبين..) بدا التــأثرُ واضحاً على وجهِ الأستاذ وتعثَّرَتْ الكلماتُ في فَمه. ثم صمتَ لحظاتٍ وتابعَ يقولُ: (يا لهؤلاء الــصهاينة الأشرار... لم يتركوا لنــا مكانــاً فــي حياتنــا إلاَّ وزرعوه بالجِّراحِ... حتَّى أحلامَنا.. لكنْ.. (يا جبلُ ما تهزَّك ريحٍ) سننْتَصِرُ إن شــاء الله... وســتبقى جراحُنا أوْسمةً على صدرِ التاريخ...

أين العيد ؟ ؟

أَيَّة ريحٍ طيبةٍ جاءتْ بكَ إلينا يا أستاذُ ماجد؟! كمْ مرَّةٍ ردَّدْتَ علىً مسامعنا: (الحياة أمٌّ، والأمُّ حياة). وأنت تعرفُ أنَّنا أيتامٌ في دار أبناء الشهداء هذه؛ محرومون منْ هذه النعمةِ التي لا تساويها نعمةٌ في الكون. لقدْ اغتالَ الصهاينة الأشرارُ

أمَّهاتنا، وأذاقونا مرارَةَ اليُتْمِ الحارقة. وأنــتَ يــا أستاذ تقولُ: (لا حياة بعد الأم، ولا كرامة لإنــسان بعد وطنه). أنظرُ إلى عينيك فأرى أمي تأخــذني من يدي، وتسيرُ معي إلى السُّوق لتشتري لي ثيابَ العيد. أسألها: (ومتى سيأتي العيدُ يا أمِّي؟؟) فتقولُ لي بابتسامة مشرقة: "غداً يا حبيبــي!". وأســألها: (وكيف سيأتي العيدُ يــا أمِّــي؟؟ ماشــياً أم فــي السيارة؟؟). تضمني إليها وتقولُ: (لا يــا حبيبــي. العيد يأتينا مثل الطَّير). وأسألها بإلحــاح: (لــــه أجنحةٌ؟؟ كبيرة؟؟ مثل البطَّة؟؟). فتجيبني بمَــرَحٍ: (لا! مثل الطاووس). وأنسى كــلَّ شــيء وأفكــرُ بالطاووس، وماذا سأقول لــه؟؟ وماذا سأطعمه؟؟. ولا نعودُ إلى المنزل إلاَّ ورأسُ أمِّي مثقلٌ بالعديــدِ من الأسئلة. أحاولُ أن أتذكَّرَ: (كمْ كانَ عمركَ في تلك الأيَّام يا أحمد؟؟). أظنُ أني كنتُ في الرابعــةِ من عمري، أو ربما أقل. أذكرُ ، بعــد عودتنــا،

دخلتْ أمِّي إلى المنزلِ، وبقيــتُ فــي الــشارعِ؛ فهاجمني خروف الجيرانِ، ورماني أرضاً.. لكنني نهضتُ وتناولتُ حجراً، وضربتهُ، ولم أصبْه، فعاد يهاجمني ثانية. ولولا جارتنا أم أيمن لآذاني ذلــك الخروف. أدخلتني جارتنا إلى المنزل، وحــذَّرتني من الاقتراب من الخروف. لكنَّني انتظرت حتــى خرجتْ، فمضيتُ إلى المطبخِ، وأخذتُ رغيفاً مــن الخبز، وعدْتُ إلى الخروف، وبدأتُ أقتربُ منــه بحذر وأغريتهُ بالخبزِ. بدأ الخروفُ يهزُّ رأسَهُ لي، ويطمئن لي شيئاً فشيئاً. خرجتْ أمُّ أيمن فرأتنــي أعانقُ الخروفَ وأُطعمهُ الخبزَ. وقفتْ تنظرُ إلــي بدهشة وإعجاب. ثم قادتني إلى أمي وطلبتْ منهــا أنْ لا تسمحَ لي بالخروجِ، فقدْ يــؤذيني الخــروفُ بقرونه الطويلةِ الحادة. فقالت لها أُمِّي رحمها الله: (دعيه يلعب، ويريحني منْ أسئلته. سألني أكثرَ من ألف سؤال عن العيد). فقالتْ لها الجــارة: "دعيــه

يسأل. هل أصبحَ السؤالُ حراماً؟؟".

أجابتْ أمي: "ليسَ حراماً.. لكن من أين يأتي بمثل هذه الأسئلة؟.. وكأنَّها نبعٌ". وأضافتْ أمي توصيني: (اسأل يا أحمد خالتك أم أيمن عن العيد.) نظرتُ إليها بحياء، وبقيتُ صامتاً. قالتْ لها أمي: (سألني كيف يأتي العيد؟ فقلت له يأتينا العيدُ مثل الطير.. ثم بدأت الأسئلة: ما هو لونه؟ وأينَ ينامُ العيدُ؟ ومن والده؟ وأين هو الآن؟؟ ولماذا لا يبقى عندنا؟؟.) عانقتني الجارة بحنان، وهتفتْ فرحة: (يسلم لي هو وأسئلته.. العيدُ يا حبيبي مثل الغيمة يأتي من بعيد، ويهطلُ علينا مطراً، فيسقي قلوبَ الناس لتزهر..). قاطعتُها سائلاً: (قالتْ أمي إن العيدَ طيرٌ كبيرُ، مثل الطاووس.. يطير في السماء. طيب، إذا (قوسوه)؟!) وانتفضت أم أيمن تستنكر قائلة: "يقتلُ

الله من (يقوِّسُ) العيدَ. العيدُ يحميه الله. لا تخفْ يا أحمد. سيأتينا العيد بإذن الله. وكلنا سنحميه إذا حاول أحدٌ أن (يقوسه)". وأنا أقول اليوم: "سيأتينا العيدُ يا أستاذ ماجد، بإذن الله. آه أيها العيد! (ذكَّرتني أهلي وجيراني!). آه أيها العيد! (قد هيَّجت أشجاني) وأحزانيِ!. وأسألُ نفسي اليومَ أين العيد؟؟ وأعرفُ من يقتلَ العيد، كلَّ عام، بل كلَّ يوم وساعة، قبل أن يصلَ إلينا. فإلى متى يا عيد تبقى بعيداً عنا، يمنعك الأشرار من الوصول إلينا، لتزهرَ الحقولُ والبساتينُ في قلوبنا وأرواحنا، ونبحرَ في شذا الأفراح، نبشِّرُ الكونَ، بسلام المحبة والوئام؟؟. وأسألُ نفسي أيضاً: "هلْ كانَ عمري حين ذاكَ، نحو أربع سنوات فقط؟؟ كأني أعيش تلك الأيامِ كما أعيشها اليوم. رائحة أمي تنعشني، وتهتفُ في قلبي، بل وتغنّي وتزغردُ وترقصُ: (كلُّ عامٍ وأنتِ بخيرٍ يا حبيبي أحمد.!

كلُّ عامٍ وصديقك عيسى بخير! كلُّ عامٍ وحبيبك الأستاذ ماجد بخير. كل عام وأطفالُ العربِ والعالمِ، بألفِ ألفِ خير..) وأمي لم ترَ في حياتها صديقي عيسى، ولم تعرف الأستاذ ماجد. يا لقلبِ الأمِّ! كأنَّهُ حيٌّ لا يموتُ، يعيشُ معنا دائماً وأبداً، يبدِّدُ الظلامَ، ويطردُ الأحزانَ، ويحرقُ الآلام. هيَّا يا أمي اقتربي مني أكثر، لأسألك عن العيدِ. عن ذلك الطاووس الجميل، وعنْ أمِّ أيمنَ وخروفها. ليته يعودُ، لينطحني بكلِّ ما يملكُ من قوة، ما شاء وما طابَ له أن ينطحَ. آه، ما أجملَ نطحاتك، وما أحلاها على قلبي، كأنَّها تباشيرُ العيدِ ورائحته الزكية.

يناديني عيسى، مصافحاً. صافحته فعانقني؛ يهنئني بعيد الفطر السعيد. كان هادئاً قريرَ الروح، كبرعمٍ على صدرِ أمِّه. نظرَ إليَّ طويلاً ثمَّ قال:

(كنتُ أراقبك وأنتَ غارقٌ في ذكرياتك. لقد ابتعدتَ عنَّا بعيداً. ثم ذكَّرني بعبارة الأستاذ ماجد: (أرني ابتسامتك أيُّها القوي، تشرقْ في وجهك نوراً يطرد الظلام من طريقك!). ثم قدَّمَ لي بطاقة كَتَبَ فيها بخط يده الجميل: (أعيادنا في نصرِنا الكبير على الصهاينة الأشرار.)

نظرتُ إلى الأُفقِ البعيدِ، فرأيتُ وجهَ أمِّي يُشْرِق بابتسامته الحبيبة، وقد طارَ من بين شفتيها، سربُ حمامٍ أبيضَ، راحَ يحومُ فوقَ رأسي، يبشِّرني بعيدٍ كبيرٍ، لأطفال العربِ جميعاً.

الزيارة

بينما كنَّا نتناولُ طعامَ الغداء، اقترَبَ الأستاذُ ماجد منْ زميلنا مهيار وأبْلَغَهُ أنَ زائرا يَنْتَظِرُهُ بعدَ الطعامِ. نظرَ إلينا بِحَرَجٍ وحياء. ومهيارُ شاعرُ صفِّنا، لكنَّه شديد الحياءِ. وهو صاحبُ صوتٍ عذبٍ، إذا غنَّى، أصبحَ لونُهُ ورديا كزهرةٍ خجلى.

بعدَ الطعام، هَمَسَ مهيار في أذنـــي: (أرجـــو أن تكونا معي أنت وعيسى). حاولت أن اعْتَذِرَ، لكنَّه أصرَّ على مرافقتنا لـــه. مضينا معـــاً إلـــى لقـــاءِ الزائر. حييناه، فعانقنا جميعاً بحرارة، وقبَّلنا، ثـــم جلسَ ينظرُ إلينا بلهفة، ويرمقنا بنظـــرات تفـــيضُ بحنان مغموسٍ بحزنٍ وأسى. تأمَّلَ الزائرُ مهيـــاراً طويلا، وعيناه تفيضان بالدموع.. ثم أشـــار إلـــى مهيار مؤكِّداً: (أنت مهيار! أليس كذلك؟؟). أطرق مهيار بِرَأْسِه إلى الأرض، ولم يُجبْ. اقتربَ منـــهُ وعانقه بحرارة وهو يقول: (أهلا بابن الغالي! أهلاً بالحبيب.) وكرَّرَ هذه العبارة غيرَ مرة. انضمَّ إلينا الأستاذُ ماجد، وجلسَ يَنْظرُ إلينا بارتيـــاح. كـــان الزائرُ ينظرُ إلى مهيار كوالد أضاعَ ابنه الوحيـــدَ مدَّةً طويلة، ولم يعثرْ عليه إلاَّ بعدَ جهـــد وعـــذاب أليم. بعد أن هدأ قليلاً، بدأ الزائر يبحثُ عن كلماتٍ يقدِّم بها نفسه إلينا، فلمْ يجدْ ما يبدأ به.

عادَ إلى الترحيب بنا بكلمات تُعَبِّرُ عنْ حبِّه الشديد. أخيراً تدخَّل الأستاذُ ماجد فقال لمهيار: (عمَّكَ أبو سامر يا مهيار. جاء من فنزويلا ليسلِّمَ عليك.) قال مهيار ولمْ يرْفَعْ ناظريه: (لكنْ، ليس لي أعمام. استشهدوا جميعاً.)

نهضَ مهيار للانصراف. استوقفه الأستاذ لائماً: (اجلسْ يا مهيار! لماذا نهضتَ؟؟). جلسَ مهيار على مَضَضٍ. كان وجهُهُ يزدادُ تَورُّداً. سأله الزائرُ: "أنا ضيفكُ جئتُ منْ فنزويلا لأراكَ وأسلِّمَ عليك. كأنك لا تحبُّ الضيفَ؟ حبيبي مهيار! أنا عَمُّكَ.. أقصد. كان والدُكَ رحمه الله، أعز إنسان رأيته في حياتي. ألمْ تسمع بالمثل (ربَّ أخ لك لم تلده أُمُّكَ؟). لقد كان والدُك، رحمه الله ــ الأخَ والصديقَ ،أنا مدينٌ له بكلِّ ما أملكُ في حياتي. كان مَثَلي الأعلى. كنتُ أعيش في ظروفٍ قاسية

لا تطاق. عانيتُ من المرضِ طويلاً، وكان والدُك رحمه الله، يقفُ إلى جانبي، كما يقف الأبُ والأخُ والصديقُ الوفي. ومهما عملتُ، فلن أفيه جزءاً يسيراً من دينه علي.) وصمتَ الزائر طويلاً، ينظرُ إلى مهيار. كان الزائرُ يبحث عن طريقٍ إلى قلبِ مهيار، وكان مهيار يدعو الله أن يفتح له طريقاً للخلاصِ من هذا الموقفِ الصَّعب والشائك. كان مهيارُ يحكُّ جِسْمَه بكثرة، ليخفف من الحرج الذي يحاصره ويضغط عليه وحين عجزت الكلمات، تناول الزائر محفظة كانت إلى جانبه، وقرَّبها من مهيار، وقال: (حبيبي مهيار. هذه لكَ. وسأزورك غداً ــ ونظرَ إلى الأستاذ ــ إذا تكرَّمَ وسمحَ لي الأستاذ ماجد.) ثم نهضَ الزائر على نيَّةِ الانصراف، وعيناهُ تعبِّرانِ عن فشلِه في الدخولِ إلى قلبِ مهيار. ودَّعنا جميعاً، ثم مدَّ يدَه إلى مهيار لوداعه، فلم يستجب مهيار. سأله بأسى: (ألا تريد

أن تصافحني؟؟). لم يحبْ مهيار، بل نظــرَ إلـــى الأستاذ وقال بإصرار: (أنا لا أريد شيئاً من أحـــد! فليعْطِها لغيري!) طفحَ وجهُ الزائرِ بالحزنِ والأسى وقال: (لماذا تعاملني وكأنِّي عدو؟؟. أنتَ ابن أغلى وأعزِّ إنسانٍ في حياتي وهذه هدية منّـــي إليـــكَ..) قاطعه مهيار: (لا أريدُ. لستُ بحاجـــة لـــشيء..). نظرَ الزائرُ إلى الأستاذ، يستنجدُ به. اقتربَ الأستاذُ من مهيار. وضعَ يدَهُ على كتفه وقال: (لا يجـــوزُ هذا يا مهيار. لقدْ قبلَ الرسولُ ﷺ الهدية لا تخْجِلْ عمَّكَ، وقلْ له شكراً!) ثم نظر الأستاذ إلى الزائـــر وقال: (حسناً لقد قبل مهيار الهدية) وسأل الأســـتاذ مهياراً: (أليس كذلك؟؟) لكن مهيارا هـــزَّ رأســـه تأكيداً على رفضه. همَّ الزائرُ بالانصراف، لكنَّـــهُ عادَ وتوقَف ثانية، ينظرُ إلى الأستاذ ماجـــدَ، علَّـــهُ يجدُ لديه تفسيراً مقنعاً. قالَ الأستاذُ معاتباً: (الآنَ، أنا عاتبٌ عليك يا مهيار. هل ترضى أن يخـــرج

ضيفُكَ وهو غيرُ راضٍ عنَّا؟؟ قُلْ لنا السببَ وسنقبلُ به..). أوّل مرَّةٍ أرى مهياراً يخلعُ عنه ثيابَ الخَجَلِ والحياءِ.. ويخاطبُ الأستاذَ بصورة طبيعية، بهدوء كأنَّه يقرأ قصيدة حفظها منذُ زمنٍ بعيد قائلاً: (كانَ أبي رحمه الله يشجعني على البذلِ والعطاء. وكان يوصيني دائماً بأن أعطي ولا آخذ إلاَّ ما أنا بأمسِّ الحاجة إليه. كان يعطيني السكاكرَ والهدايا لأوزِّعها على زملائي، فأصبحتُ لا أفرحُ إلا عندما أزرعُ وردَ الفرحِ في صدور منْ أحبهم. فكيفَ تريدني أن آخذ شيئاً لست بحاجة إليه، وأنا أحلمُ بلحظة أكونُ فيها أنا من يعطي ويسقي مروجَ الفرح في قلوبِ الناس؟!) كنَّا ننظرُ إلى مهيار بإعجاب شديد، ولم ننتبه إلى الزائر إلا بعد أن عانق مهيار وراح يهتف من أعماق روحِه: (أصيلٌ! والله! أصيلٌ وابنُ أصيل!) واستدارَ إلينا وتابعَ قائلاً: "ماذا أقولُ يا جماعة؟؟ لا أعرفُ ماذا

أقول؟؟ لمنْ أقدِّمُ هديتي؟؟ سأضَعها أمانة بين يدي الأستاذ.. وأمضي مكسورَ الخاطر..لا! بل أنا فخورٌ بابن صديقي وحبيبي مهيار.) وكادّ يخرجُ دونَ وداعٍ، لكنَّ الأستاذَ استوقفه، وهو يقول لمهيار: (مهيار! عمُّك أبو سامر تبرَّعَ بمبلغ كبيرٍ من المالِ لدار أبناء الشهداء، وجاءَ بهذه الهدايا لك. فأقبلْها وهبْها لمنْ تشاء.) قالَ مهيار: (ليستْ لي لأهبَها.... ولنْ أبيعَ معروف أبي بمال الدنيا. وكُلٌّ يُجزى على معروفه). ومدَّ يدَه إلى الزائر مودِّعاً وهو يقول: (آملُ أن تكونَ زيارتُك المقبلة للدارِ، وليس لي فقط، لنفرحَ بك جميعاً، وتفرحَ بنا جميعاً. فيدُ الله مع الجماعة). عانقَ مهيارُ الزائرَ وانصرف. ودَّعنا الزائرَ وتبعنا زميلنا، ونحن لا نصدِّق ما رأيناهُ من مهيار الذي كنَّا نظنُه من أرقِّ الأطفالِ وأكثرهم وَجَلا وحياءً.

العصفور الشجاع

تحدثتُ طويلاً أنا وعيسى عن مهيار الذي فاجأنا جميعاً حديثُهُ مع الزائر أبي سامر. ولم نستطعْ تفسيرَ ــ لماذا رفضَ مهيار هديةَ صديقِ أبيه الحميم.. ولماذا لمْ يقابل مهيارُ وفاءَ صديقِ والده، بالشكرِ والعرفان؟؟ لقد جرحَ مهيارُ مشاعرَنا جميعاً. حتَى الأستاذَ، لمْ يرتحْ لموقف مهيار. والحقيقةُ أنني تألمتُ كثيراً لأنَّ مهياراً أخْجَلَ الزائرَ (أبو سامر)

وأخجلَ الأستاذَ أيضاً. لكنِّي منذُ تلكَ الزيارة، بـــدأتُ أهتمُ وأتوقفُ أمامَ كلِّ حركة يقومُ بها مهيار. جلستُ إلى جانبه على طعامِ الغداء، وقلـــتُ لـــــهُ: ((لقـــدْ أغضبتنا جميعاً منك يا مهيار.)). فأجابني بودٍّ: ((لا عاشَ منْ أخجلك يا أحمد)).. وتابعَ: ((لا أريـــد أن أتميَّزَ عنْ واحد في شيء. نحن هنا أخوة. فلو جـــاءَ والدي بهدية لي وأنا في هذه الدار لما قبلتُهـــا. وأنـــا على يقين من أنَّ والدي لو كانَ حيَّاً، مـــا خـــصني بشيء.. فإما أن يقدِّمَ لنا جميعاً ما يريـــدُ أن يقدِّمَـــهُ، وأمَّا أنْ لا يقدِّم.)). قلتُ لـــه: ((لقد أرادَ العمُّ أبـــو سامر أن يعبِّرَ عن وفائه لأبيك.. ولـــمْ تقـــدِّرْ أنـــت موقفَهُ وعواطفَه النبيلة.)). قالَ ببـــساطة: ((لكـــنْ، ليسَ في هذا المكان. فنحنُ في دار أبناءِ الشهداء. إنَّه مكانٌ مقدسُ.. هنا تتعـــانقُ أرواحُ آبائنـــا الـــشهداء، لتعبِّرَ عنا جميعاً. عن وطننا الواحد وعـــن وحـــدتنا المقدسة.)). اقتنعتُ بما قاله مهيار، لكنِّي بقيتُ غيـــرَ

مرتاحٍ لموقفه من أبي سامر. سألته عن الشعر.. وعن آخر ما كتبه. قالَ: ((كل يوم أكتبُ مقطوعة. وفي الصباحِ أقرأها فلا تعجبني، فأخبئها، وأحياناً أمزِّقُها وألقيها في سلةِ المهملات.)). مهيار متواضعٌ جداً. وقد نوَّه الأستاذُ ماجد غير مرة بكتاباته المتميزة. تمنيتُ أن يقرأ لي أحبَّ ما كتبه، أو أحدَثَ ما كتبه، لكنَّه قالْ لي: ((أنا الآنَ أقرأ التاريخَ وأفكِّرُ كثيراً بالتاريخ. قرأتُ كثيراً عن وعدِ بلفور المشؤوم، وكتبتُ هذه العبارات:

بلفور أفعى في الزمان بسُمِّهِ

حَرَقَ الحقولَ ويتَّمَ الأزهارا

أدمى البراعمَ والطيورَ بحقده

طَعَنَ النجومَ ورمَّلَ الأقمارا.

سألته: ((وماذا قلت في شارون؟)). تنهَّدَ بحزن وقال: ((كلُّهم واحدٌ وإن اختلفت الأسماء.

شارون هو (بلفور) و(بلفــور) هــو (شــارون).. الأشرارُ هم الأشرارُ مهما اختلفت الأسماءُ. اسمع هذه الحكاية)).. وكأنَّهُ أراد أنْ يبعدَني عن الشعر. قلت هاتها يا صاح. قال: (عاش في قديم الزمــان ملك شرير، لم يترك جريمة بشعة إلاَّ وارتكبَهــا. كان يحرقُ المدنَ ويُدمِّرُ القرى، ويقتِــلُ النــساءَ والشيوخَ بنشوة، كما كان يتناول وجْبَتَهُ الشهية كلَّ يوم. كانت ْالنجومُ تموتُ حزْنا على الأطفال الذين يتَّمهمْ هذا الملكُ الشريرُ؛ وتهتَزُّ الجبالُ أَلَمَا لكــل جريمة تقترفها يداه الآثمتان. حتى الغيومُ، كانــتْ تهربُ بعيداً، كي لا تدنِّــسَها جرائمُــهُ النكــراء. وكانت العصافيرُ ــ الوجبةَ المفضلة لهذا الملــك الشرير. لذا كانت تختبئ ساعات طويلةً حتــى لا تطالها أيدي صيادي الملك، المتربصة بها في كلِّ مكان. وذات يوم فكَّرَ عصفورٌ شابٌّ: ((إلى متى نبقى مختبئين في أعشاشنا، نعيش فــي الظــلام،

محرومين من حريةِ الطيران في الفضاء الطلــقِ واللَّعبِ في المروجِ والبساتين؟ إلـــى متـــى نبقـــى محرومين منِ الغناءِ على الأغصان؟ إلـــى متـــى نحملُ الخوفَ معنا في كلِّ مكان، من بطشِ هــذا الملك الآثم؟ وإلى متى ننتظــرُ المــوتَ، ونحــن مكبلون بالرُّعْبِ والأحــزان؟)). ولــمْ يــنَمْ هــذا العصفورُ طوالَ الليل، وهو يفكرُ ويفكرُ؛ يحــاول الإجابة عن العديد من الأسئلة. ومع الفجرِ، انطلق العصفورُ الشابُّ إلى عشِّ عصفور عجوز، وطلبَ منه أن يساعدَ في الإجابة عن ما خطرَ في ذهنــه من أسئلة، لمْ يستطعْ الإجابة عنها. بكى العصفورُ العجوزُ فخراً وفرحاً هاتفاً: ((أهلاً بأشجعِ عصفور رأيته في حياتي!)). استغربَ العصفورُ الشابُّ هذا الإطراءَ.. وسألَ العصفورَ العجوزَ: ((لمْ أفعل شيئاً لأستحق هذا اللقبَ الرفيــعَ)). ســألَ العــصفورُ العجوزُ: ((أجبني صراحة: هل أنت خائفُ مــن

الملك الشرير؟؟)). أجابَ العصفورُ الشابُ: ((سئمتُ الخوفَ لا بلْ بتُّ أكرهُ وأحتقر كُلَّ خائف جبان، حتى ولو كان هذا الجبانُ أنا نفسي. لا أريدُ أنْ أموتَ وأنا مكبَّلٌ بالخوف! لا أحلمُ إلاَّ بأن أموتَ شجاعاً، إذا لمْ يكنْ من الموت بدٌ!)). ثمَّ تَنَهَّدَ العصفور الشابُ وقال: (يبدو لي أن الجبن والخوفَ هما سبب مصائبنا كلِّها) هزَّ العصفورُ العجوزِ رأسه وسألَ العصفورَ الشابَّ: ((كيفَ ظهرتْ لديك هذه الأفكارُ، ومازلتَ شاباً؟؟)). قال العصفورُ الشابُّ بألم: ((.. خرجَ والدي ذاتَ يوم ولم يعد.. وفي يوم آخرِ، خرجَ أخي الكبير ولم يَعُدْ.. أمي ترتعدُ طوالَ الليلِ والنهارِ من الخوف.. نأكلُ والخوفُ يخنقنا.. ننام والرعبُ يطاردنا. فهَلْ هذه حياة؟؟.. وإلى متى تحاصرنا كوابيسُ الرعب؟؟ دلني إلى طريق نعيشُ فيه كما تعيشُ كائناتُ الأرضِ، في سلامٍ وأمانٍ.)). تنهَّدَ

العصفورُ العجوزُ بألمٍ وحزنٍ وقالَ:

من أينَ يأتي الأمانُ والسلامُ

إذا سادَ الطغاةُ واللئام!

لم تعجبني إجابة العصفور العجوز. قلتُ لمهيارَ: ((يبدو أن عصفوركَ العجوزَ جبانٌ أيضاً.)) قالَ بإصرار: ((أنا لا أسمي من يحلمُ بالسلامِ جباناً)). قلتُ محتجّاً: ((وما نفعُ الأحلامِ بلا أفعال!)). قالَ بسرورٍ ونشوة: ((العصافيرُ هي أرواحنا يا أحمد.. وعندماً تحلمُ أَرواحُنا، تتحرّكُ عقولُنا.. وعندما تتحركُ عقولنا، تزودنا بالنشاط والحيوية، لكي نقومَ بالفعل الذي نريدُ..)).. سألته مُمْتَحِناً: ((وما الذي يمكن أن تفعله العصافير أمامَ صيادي الملك، الذين يحملون أسلحة فتَّاكة؟؟..)). قال ببساطة لم أتوقعها: ((.. الفعل للإنسان فَقط، إذا فهمَ وأدرك..)). بدأت أفكِّرُ بما قاله مهيار. ربَتَ على كتفي وقالَ: ((.. يقفُ

الفلاحُ أمامَ الشجرة، كأنَّه يقفُ أمامَ أحبِّ الكائنات إليه؛ ويفهم كل ما تحتاجه حبيبتُه الشجرة)) وسألني كما يسألُ المعلمُ التلميذَ: (هل فهمت فكرتي؟؟)). هززتُ رأسي إعجاباً بمهيار وما قاله.. لكنَّهُ تابعَ يتأملني وكأنَّهُ يشكُّ في فهمي واستيعابي لفكرته، فأضاف موضِّحاً: ((.. ويصغي النبيهُ الذكيُ إلى زقزقة روحه وتغريدها؛ ويفهمُ، كما يفهم الفلاحُ حبيبته الشجرة..، إذا كانتْ أرواحنا خضراء، أيقظتْ الإلهامَ فينا.. والعصافيرُ هي أرواحنا؛ تبحثُ عن أشجارها الخضراء، لتسمعنا ما تريده الحياة منا.)).. ودَّعْتُ مهيارا وأنا أفكِّرُ وأقارنُ بين مهيار ــ الطفل الخجول، وبين مهيار ــ الشاعر الذكيِّ... الغني بأفكارٍ نحتاجُ إلى فهمها ودراستها. فمن يدري قد يصبحُ مهيار فيلسوفاً مثل ابن خلدون الذي حدَّثنا عنه الأستاذُ في الأسبوع الماضي؟!

عسكر وحرامية

شعرتُ أنِّي ارتكبتُ خطأ كبيراً بحقِّ مهيـــار، حينَ قاطعتُه وهو يحكي لي حكايتهُ، ولمْ أُتـــحْ لـــهُ فُرْصَةً لإكمالها. ولامني عيسى حينَ أخبرتُهُ بمـــا جرى بيني وبينَ مهيار، لكنَّه طمأنني بأنَّه سيْصلِحُ الأمرَ. بعدَ العشاءِ جلسنا مع مهيار وتحدَّثْنا طويلاً عمَّا يجري حولنا منْ أحداث شهدتْ اليومَ، تـــسعةَ عشرَ شهيداً، منْهُم طفلةٌ رضيعةٌ وثـــلاثُ نـــساء.

قلتُ: (صرنا نتحدث نحنَ الصغارُ عن الحــروبِ والدَّمارِ والشهداء، أكثرَ من الحديثِ عن الألعــابِ والنُزْهات والأحلامِ). تنهدَ عيسى وقالَ: (أشْــعُرُ بأن صدري أصبحَ أرضْاً جافَّةً، كأنَّــهُ صــحراءُ تَلْتَهُبُ...). قلتُ: (..ولا يشفي عطشَ الأرواحِ إلاَّ الحكايات الجميلةُ.. ليتَني الآنَ أجلسُ في بــستاننا إلى جانب جدي، يقصُّ عليَّ حكايةً مــن حكاياتــه المُمْتعة..) وكدتُ أغيبُ في عالمِ الأحــلامِ، وأنــا أتَذَكَّرُ تلكَ الأيام الجميلة الرائعة.. لوْ لــمْ يهزُّنــي عيسى من يدي مازحاً: (يالكَ منْ أناني.. ألا تحبُّ أن نكونَ معكّ؟؟).. وأضافَ مهيــارُ: (تريــدُ أن تمضي مع ذكرياتكَ وَتَتْرُكَنا وحيدين هنا؟؟..) قلتْ بأسى: (... آسف! آسف. تخطفُنا الذكرياتُ رغْماً عنَّا، كما يخطفُ النومُ المتعــبَ الحــالمَ..). قــالَ عيسى مخاطباً مهياراً: (أنقذْنا بحكايةٍ تأخذُنا معــاً إلى عالمٍ جميلٍ).. ومهيار يحبُّ كلمةَ (معــاً). أي

أنه يحبُّ الحديثَ والمشاركةَ في موضوعِ الجماعة. قالَ بعفوية: (الحكاياتُ تأخذنا إلى الماضي، وأنا أحبُّ أن أنظرَ إلى المستقبل.. فما رأيكم أنْ ننظر إلى الأمام؟؟ ما رأيكم في أن نطيرَ إلى عالمِ المستقبل، لنكونَ أبطالَ حكايةٍ جديدة؟؟..). سألناه بلهفةٍ وحماسة: (كيف؟؟ ماذا تقصد؟؟). قال ببساطةِ الحكيمِ وثقته: (كلُّنا واثقونَ من انتصارنا على الصهاينة الأشرار وتحريرِ كاملِ أرضنا من سمومهم). قلنا بثقة: (طَبْعاً كلُّنا واثقون..). قالَ مهيارُ بحركةٍ مسرحية، مادّاً يدَهُ إلى الأمام: (تصوروا معي أنّنا الآنَ نُطهِّرُ أرضَنا من بقايا جنودِ الاحتلالِ المُنْهَزِمِ أمامَ الانتفاضةِ العارمة لأمَّتنا على قوى الشرِّ والعدوان).ونظرَ إليَّ طويلاً يَتَفَحَّصُني وتابعَ قائلاً: (أنتَ الآنَ يا أحمد ضابطٌ منهزمٌ في جيشِ الاحتلال الصهيوني، يحاصرُكَ المقاتلون العربُ في إحدى المستوطنات

الصهيونية). لاحظَ مهيارُ ألمي وحُزْني.. فطَمْأَنَني قائلاً: (إننا نتخيَّلُ.. تتصورُ.. أنتَ أحمد ــ عربي.. ألا تستطيع أن تتصورُ حالةَ ضابطٍ صهيوني محاصرٍ في إحدى المستوطناتِ الصهيونية؟). وافقتُ على مَضَضٍ، فالتَفَتَ إلى عيسى وقالَ: (وأنتَ يا عيسى، تصورْ أَنَّكَ تُحاصرُ آخرَ مستوطنات الصهيونية المُنْهَزِمَة.. وتلْقى مقاومةً شديدةً) احتجَّ عيسى ساخراً بطريقة مسرحية: "أنا أتصور أن الصهيونيةَ ستنهارُ، كما ينهارُ بناءٌ ترابيٌّ قديمٌ، أمامَ مَطَرٍ غزيرٍ ورياحٍ عاصفة. ستهوي الصهيونية وتغورُ في الأرضِ عميقاً.. أو ستجرفُها السيولُ..). رَفَعَ مهيارُ يَدَهُ مُنَبِّهاً، يُذَكِّرُنا: (الذكيُّ النبيهُ، يستَعِدُّ لكلِّ الاحتمالات.. ــ وبالطريقة المسرحية نفسها تابعَ: (نحن يا أصدقائي، نتصورُ.. نتخيلُ ونستعدُّ لكلِّ الاحتمالاتِ.. أليسَ كذلكَ؟؟(. سألتُهُ: (وأنتَ؟ ما

هو دَوْرُكَ؟؟). قالَ ببساطة ونشوة: (أنا الجمهور.) وأشار بيده للبدء قائلاً: (هيَّا يا أحمد! أرِنا ما عندكَ!). (سأحاولُ وأبذلُ قصارى جهدي.. وأمري لله).. تصورتُ أني مسؤولٌ عن مستوطنة صهيونية، واسمي موشي. بدأ الرعبُ يُمزِّقُني واليأسُ الأصفرُ ينهشني وأنا أعيشُ انهيارَ الكيانِ الصهيوني، وأرى وأعيشِ بألم كيفَ تحوَّلَتْ الأحلامُ إلى رماد. أصرخُ بأعلى صوتي: (أيها الناس!) فيجتمعونُ حولي يرتعدونَ خوفاً وهلعاً. أقولُ لهم بصوتٍ تخْنقُه الآلامُ وتحرقُهُ المرارُة: (لقد انهزمنا!! وعلينا أن نرفعَ الرايةِ البيضاءَ.. ونرحلَ..كفانا حروبا!! كفانا دمارا.. لقد وَعَدَتْنا الصهيونيةُ بالجنة، ولم تعْطنا إلاَّ الحروبَ والدمارَ. هيَّا اخرجوا وارحلوا.. واتركوا الأرضَ لأهلها...) يهجم علي صهيوني أرعن... يَمْنَعُني من متابعة كلامي: (اسكت أيُّها الجبانُ.. لنْ نرحلَ. سنموتُ

هنا.. سنحترقُ مع أحلامنا.. ولن.. نر..حـــ..ل!)
يصوِّبُ الصهيوني الأرعنُ مسدَّسَهُ تجاهي ويطلقُ الرصاصَ علي. يصيبني في كتفي. تتدفق القوات العربية، وتجتاح المستوطنةَ كالسَّيلِ الجارف.. يلتصقُ الصهاينةُ جميعاً بالأرضِ. أنا جريحٌ.. أصرخُ متألماً. يقفُ (عيسى) ـــ قائد القوات العربية المقتحمة، يخاطبُ المستوطنين الصهاينة المستسلمين: (أيُّها الناسُ! العربُ لا يُؤذون أسراهم، ولا يعاملون الضعفاءَ والأطفالَ والنساءَ بقسوة. انهضوا جميعاً ولا تخافوا. لا نريدُ إلاَّ إعادةَ الحقَّ لأصحابه). يشيرُ عيسى إلى مساعده: (خذوا الأطفالَ والنساءَ والشيوخَ إلى مكانٍ آمنٍ.. وقدِّموا لهمْ ما يحتاجونه..). أصرخُ مُسْتَنْجداً من الألم. يقتربُ مني عيسى. يسألني: (من أنتَ؟؟.) أحاولُ النهوضَ فيمنعني جُرْحي من الوقوفِ. يساعدُني عيسى على النهوض.. أقدِّمُ نفسي

بصوتٍ يتمزقُ من الألـــم: (أنـــا.. قائـــدُ.. هـــذه المســـ.تـــ..ـــو..ط..نة..).. أفقدُ السيطرةَ علـــى نفسي ويُغمى عليَّ. يُشيرُ عيسى (كقائدٍ للمقـــاتلين العربِ). بتقديمِ المساعدة الطبيةِ لي، ثمَّ يتوجَّهُ إلى بقية المنبطحين على الأَرضِ: (نَطلبُ من جميـــع المجندين فـــي الجـــيش الـــصهيوني أن ينهـــضوا ويصعدوا إلى عربة، بعد أن يتركوا كل أســـلحتهم على الأرض.) يتراكضُ الصهاينةُ، يصعدون إلى العربة. ينتهي المشهدُ. نقفُ أمامَ مهيار. نسألُهُ عن رأيه.. يفكِّر.. ثم يقولُ: (هناكَ خطأٌ كبيرٌ ارتكبـــه عيسى. فمنْ يستطيع تحديدَ هذا الخطـــأ؟؟) بـــدأنا نُفَكِّرُ.. بالخطأ الذي ارتكبناه فـــي (اللعبـــة) التـــي مثَّلناها أمام مهيار، لكننا لم نستطعْ تحديدَ الخطـــأ. سلَّمْنا بعَجْزنا في اكتشافِ الخطأ. عندئـــذ ســـألنا مهيارُ: (عندما نقبضُ علىَ مجرمٍ، ماذا نفعلُ؟؟..) قال عيسى دونَ تفكيرٍ: (أولاً نُفَتِّـــشُهُ..). هتـــفَ

مهيارُ: (طبعاً!!.. وأنتَ يا عيسى لمْ تأمرْ جنــودَك بتفتيش الصهاينة.. فقدْ يَخْدَعَكَ أحــدُهم ويحــتفظُ بسلاحه ليقوم بعمل انتقامي لمْ تكن تتوقعه.). قلتُ مازحاً: (كأننا لعبنا عَسْكَر وحرامية. وكنَّا نلعبُ). قال بحماســة: (صــحيح! ألــيس الــصهاينة ــ حرامية؟؟.. سرقوا أرضــنا؟؟..). اقتــربَ منَّــا الأستاذُ ماجد من غير أنْ نشعرَ. سلَّمَ علينا. كانتْ عيناهُ مغرورقتين بالدموعِ. قالَ بــصوت يَحْتَــرِقُ ألماً: "العمرُ لكمْ جميعاً.. لقد توفيتْ الجدَّةُ..."

رحيل الجدة

كان وقعُ الخبرِ أليماً علينا جميعاً. فقدْ رحلتْ الجدَّةُ التي كنَّا نحلمُ بزيارتها، لتحكي لنا عن زوجِها، رفيقِ عزِّ الدين القسَّام ــ شيخ المجاهدين وإمامهم. وبقيتْ تلكَ الأمنيات في صدورِنا، وردةً تحلمُ بقطراتٍ من غيمة حنون؛ نكْبَرُ معها في حقولٍ خضراءَ. وكيفَ تعيشُ الورودُ بين دباباتِ الصهاينة الأشرارِ، يهدمونَ المنازلَ فوقَ أهلِها،

ويحرقون البساتينَ والرياضَ والحقــولَ، ويبثُّــونَ سمومَهم الحارقةَ في كلِّ مكان يحلّون فيه؟؟ نظــرَ إلينا الأستاذُ ماجد طويلاً وقال:

ــ من المفروض ألاَّ أخبركمْ بوفــاة الجــدَّة، لكنني أريدكم أن تكونوا أقوياءَ أمامَ كلِّ حــدث أو خبر. هذه هي الحياة ــ رحيلٌ وسفرٌ، لقاءٌ وفراقٌ، فشلٌ ونجاحٌ... الخ.

وهمَّ بتوديعنا، فاستوقفتُهُ بكلِّ ما أملكُ من قوة وحزم قائلاً: (سنذهبُ معك!). قالَ رافضاً وقد فهمَ قصدي: (إلى أين؟؟ لا! لا!). قلتُ بإصرار أشــد: (سنذهبُ معكَ وإلاّ هربتُ كمــا هــربَ ســامي.) ارتعشَ الأستاذُ رهبةً من قولي، وبدا عليه حَــرَجٌ شديدٌ.. وشعرت أنني دفعته إلى حيــرة شــائكة. صرخَ بصوت مَكْبوت: (أرجوكَ! أرجوكُم جميعاً!) ــ أوَّلَ مرَّةٍ أسمعُ منه كلمةَ توسُّلٍ ــ لا تفكروا في

هذا الموضوع! نحن في ظروفِ احتلال قاسية. الجنودُ الصهاينةُ كالذبابِ، منتشرون في كلِّ مكانٍ. إننا في حربٍ طاحنة، مع جنودٍ أشرارٍ حاقدون، يغلي الرعبُ في أرواحهم..). قاطعتُه وقد داهمتني موجةُ بكاءٍ حادة قائلاً: (.. ونحنُ نعرفُ هذا!.. سنرافق جثمانَ الجدة إلى مثواها الأخير، وأتمنى لو كنتُ إلى جانبِها الآن في موتها. الصهاينةُ يحرموننا من كلِّ شيء، حتَّى من الهواء النقي، وأنتَ يا أستاذُ، تريدُ أنْ تحرمَني من أن أودِّعَ إنساناً رأيتُ فيه أمي وأبي.. رأيتُ فيه أحلامي! شممتُ فيه روحَ جدِّي.. فإمَّا أن تأخذَنا ــ وأكَّدت على كلمة "تأخذنا" غيرَ مرَّة ــ.. وإمَّا لن تراني أبداً..). وافقَ الأستاذُ ماجد على مَضَض، ولكنَّ وجهه أصبحَ أصفرَ كليمونة وهو يقولُ بلهجة تُعَبِّرُ عن عجزِه: (لا حَوْلَ ولا قوةَ إلاَّ بالله..). وعادَ للتفكيرِ ثانيةً ومنظرُهُ يوحي بأنه في مأزقٍ صعبٍ.

لا شكَّ أنَّهُ كان يبحثُ عن مخرجٍ مناسبٍ من هـذا المأزقِ. أخيراً وضعَ ساعدَهُ علـى كتفـيَّ وقـالَ بصوتٍ يختنقُ ألماً: (يا أحمد ستكون عبـأً كبيـرا علينا.. وأنت تُحمِّلُني مسؤوليةً كبيـرةً). أشـحتُ بوجهي عنهُ وأنا ابكي بحرقةٍ وألمٍ شديدين. شعرتُ بصدري يتمزقُ من شدَّةِ البكاء. عندئذٍ عانقني وهو يقولُ مَطَمْئناً: (حَسَنٌ.. سـآخذكم.. هـذا وعـدٌ.. سأعود صـباحاً). قاطعتـه بُإصـرار: (الآنَ!..) شعرتُ أنَّه استعادَ شجاعتَه وهو يقولُ: (الآنَ! ـــ كما تأمرون.. هيَّا بنا..). وسرتُ خلفَـهُ وأشـرتُ لمهيار وعيسى أن يتبعاني. وصلنا إلى منزلِ الجدةِ بعدَ أكثر من ساعتين، سيراً على الأقدامِ. سرنا في الشوارعِ البعيدةِ عن دورياتِ الجنـودِ الـصهاينة، عبرَ الأماكن المظلمة. وكانتْ الأنـوارُ الكاشـفةُ تطاردُنا من مكان إلى آخرَ.. لكنَّ الأسـتاذَ كـان حاذقاً في التخفي والابتعاد عنها. دخلنا إلى غرفـة

كبيرة؛ كانتِ الجدةُ راقدة فيها يحيطها عـددٌ مـن النساء والرجال، ينصتون إلى قارئ شابٍ، يتلـو آيات من القرآن الكريم، على ضوءِ فانوسٍ قـديم. جلسنا جميعاً ننصتُ إلى المقرئ، وأنا أحدِّق إلـى الجدة المزمَّلة بأغطية الموت. بدأ صـوتُها يعلـو ويصلُ إلي ويناديني. اخـتلطَ صـوتُها بأصـواتِ انفجاراتٍ حادة تأتي من بعيد وتقتربُ منَّـا أكثـرَ فأكثرَ. ارتجَّتِ الأرضُ تحتنا غير مرة. أنظرُ إلى مهيار وعيسى. كأنَّنا أصبحنا دمى محنَّطَـةً. أيـنَ هي دموعُ الحزنِ والأسى على فراقِ الجدة؟؟ يبدو أن روحَها ترفُّ بارتياحٍ فوقنا، سـعيدةً بالتفافنـا حولها. لم نقبلْ دعوةَ الأستاذ لنـا بـالنومِ حتـى الصباحَ. كنَّا نَنْصُتُ إلى كلِّ كلمة تصلُ إلينا مـن القارئ.. وأنا أتصورُ الجدةَ تنصتُ معنا بخشوع. كانتْ مشاعرُ الفخرِ تملأُ فضاءَ الغرفة، وتبعدُ عنَّا التعبَ، وتشيعُ الدفءَ، وتخفِّفُ مـن ألَـم أحـزانِ

الفراقِ. ولمْ يشتدُّ ألمُ الحزنِ إلاّ عندما حملَ الرجالُ نعشَ الجدَّةِ وسرنا به، ونحن نكبِّرُ. لمْ أنتبه إلى العدد الكبير من المشيعين إلاَّ بعدَ أن تعالتْ التكبيراتُ، تَتَرَدَّدُ في الفضاء. كانتْ دموعي تنهمرُ بغزارةٍ وتمنعني من مشاركة المشيعين بالتكبير. في الطريقِ اعترضتنا عصابة منَ الجنودِ الصهاينة؛ أحاطونا من كلِّ الجهات، شاهرين أسلحتهم الرشاشة، وأجبروا المشيعين على التوقفِ، وإنزالِ النعش على الأرض. زعقَ قائدهم ككلبٍ مسعورٍ: (تفتيش!!). تقدَّمَ الأستاذُ من قائدهم محتجاً: (.. ولِماذا التفتيش؟؟ ألا ترون إننا نحمـ..) رفع قائدهم يدَهُ إلى الأعلى آمراً: (..تفتيش يعني تفتيش!). انفجر الأستاذُ ماجد غاضباً: (.. ألستم بشراً؟؟ ماذا تريدون؟؟ ألا تستحون؟؟.. ألا..) وقبلَ أنْ يكملَ جملته الأخيرة، هجمَ عليه أحد الجنودِ وضربه بالهراوة على رأسه

عدةَ ضربات. وقعَ الأستاذُ على الأرضِ مضرَّجاً بدمائه. لا أدري كيفَ هجمنا نحن الثلاثةُ ــ عيسى، مهيار وأنا ــ على الجنودِ الصهاينة، في معركةٍ شرسة، اختلطَ فيها الحابلُ بالنابلِ. رأيتُ مهيارً يشتبك ويصارعُ أحدَ الجنودِ الصهاينة. ورأيتُ كيفَ ضربَ أحدُ الصهاينة مهيارا بأخمصِ البندقية على رأسه. ولم أصحُ إلاَّ وأنا في المشفى، معصوبَ الرأسِ، ويدي ملفوفةٌ بالشاش، لا أقوى على تحريكها. كان جسمي يتمزَّقُ من الألم. أين الأستاذ ماجد؟؟ أين مهيار؟؟ وأين عيسى؟؟ ماذا جرى للجدَّة؟؟ كيفَ دُفِنَتْ؟؟ وماذا جرى بعد معركتنا مع الجنود الصهاينة؟؟ من يجيبني عن هذه الأسئلة وأنا في مثلِ هذه الحالة؟؟ لا أدري! لكنَّ السؤالَ الأهم: كيفَ وصلتُ إلى هذا المكان، ومنذُ متى؟؟. يدخلُ الأستاذُ ماجد. يعانقني ويقبلني. أشعرُ أنه يعيدني من الموتِ إلى الحياة. لا أدري

كيف اختلطتْ دموعُ الفرحِ بدموعِ الأسى والحزْنِ والألمِ. أطيرُ.. وكـــأنَّني أعـــانقُ جـــدِّي وأدخـــلُ روضةً، لا أحلى ولا أجملَ، وأذوبُ فـــي روحِـــهِ غمامةً، تهطلُ مطراً غزيراً فوق حقلٍ أخـــضرَ، لاَ تحدُّهُ حدودٌ..

إلى أين

ودَّعني الأُستاذُ ماجد وتركني في المشفى. لـــمْ أسألْهُ سؤالاً واحداً من الأسئلة التي تغلي في قلبي، وتحرقُ صدري، وتملأُ روحي خوفاً مريـــراً. لـــمْ أسأله، أينَ مهيار؟ أين عيسى؟ كيف وصلتُ إلـــى هنا؟ كان وجهُهُ متورمـــاً، تخـــتلط فيـــه الألـــوانُ

الحمراء بالزرقاء، وعيناهُ مُنْتفختين، وصوتُه يكادُ لا يخرجُ إلاَّ مخنوقاً مبحوحاً، ومجروحاً تسيل منه الآلام بغزارة حادة. المشفى، مكتظة بالجرحى المرضى، وأنا مستلقٍ في غرفة كبيرة، أمام الباب الرئيس، أشاهدُ الداخلَ والخارجَ. رائحةُ الأدوية تثير القشعريرة في النفس. كأنني مُعلَّقٌ فوقَ فوهة بركان لا أرى إلاَّ الجدَّةَ تطيرُ إليَّ بأجنحة واسعة تأخذني كما تأخذ الأمُّ وليدَها، لتسبحَ بي في فضاء مطرَّز بغيوم ملونة بأجمل الألوان. أطوف معها حقولاً ورياضاً، نعانقُ الأشجارَ، ونرقصُ مع الطيور، ونجري مع الأنهار، كأسراب القطا في يوم ربيعي ساحر.. ثم نمضي، نتقافزُ على رؤوس أمواج عالية، برشاقة وحيوية، في بحر أزرقَ، ونغوصُ في أعماقه، نُداعبُ الأسماكَ الملوَّنة بألوان قَوْس قزح. ما أجملَ الدلافين تداعبني؟!.. أقفُ على رأس واحد منها؛ يقفزُ بي إلى الأعلى.

أكادُ ألمسُ النجومَ بيدي، وهي تمرحُ فوقَ شفتي الجدة. يا جدَّتي الحبيبة فسِّري لي أحلامَ نومي ويقظتي. فسرِّي لي أحلامَ حنيني وآلامي. ها أنا استمع إليكِ بكلِ جوارحي. ويدخلُ كلُّ حرف منكِ، نوراً في روحي. من قالَ أنكِ متِّ؟؟ أنت تنبضين في دمي، وتبزغين في روحي شمساً من الأمل، تبدِّدُ آلامي وأحزاني. ما أصعب الجلوس على فراش المرض، تكبلكَ الجراحُ، تمنعكَ من الحركة، وأنتَ تجمعُ وتطرَحُ وتقسِّمُ دقائقَ الزمن، وهي تعضُّكَ بأنيابها الصَّقيعية الباردة... ولا دواء إلاَّ نجومٌ تتلألأ في فضاء الروح، تحكي لكَ حكايات بديعةً، تقودكَ إلى ينابيع الحياة، لتشرب منها، وتروي حقولَ أفكارك وأحلامك، وتغسل عنكَ غبارَ الآلام والأحزان. من قالَ أنَّكِ متِّ أيَّتُها الجدةُ الحبيبةُ؟؟.. والأبطالُ لا يموتون، بلْ همْ أحياءٌ في قلوبنا؛ وفي ينابيع حياتنا. لولاهم لكانت

الحياة صحراء قاحلة.هــمُ الأبطــالُ، يزرعــون أرواحنا الجرداءَ، بأجمل البساتين والرياض؛ وهم الذين يحرسونها من اللصوص والأشرار. وأنــت أيَّتها الجدَّةُ نبعٌ من ينابيع الأبطال. إذا متِّ، جفَّ نبع حياتنا، وتحوَّلتِ الأرضُ إلى سعير. ها أنــتِ أمامي، حقيقةً، أشدُّ سطوعاً من الشمس والنجــوم، وأبهى من بدور، تذوبُ في أحضانِ شجرة حالمة، تُهَدْهِدُ ثمارها بأغنية عذبة تقول كلماتها: (ســيأتينا الضيوف/ من أماكنَ بعيدة/ يصحبونَ أطفالهم/ في قلوبهم أمنياتٌ وأحلامٌ/ يتقافزون حــولي/ يغنــون للفراشات والعصافيرِ/ أجملَ الأغاني/ فأشربُ من أفراحهم/ وأرتوي/ وأسقيكم معي/ أعذبَ الشراب/ فتغنِّي لهمُ الأغصانُ/ كلوا مــن ثمــاري مــا لــذَّ وطــاب/ حتــى نكــونَ مــن خيــرة الأحبــابِ والأصحابِ/. لكنَّ الأشجارَ تخــافُ مــن التنِّــينِ ومخالبهِ الشرِّيرة. فللتنين رؤوسٌ عديــدةٌ. تنفــثُ

ناراً، تحرقُ الأخضرَ واليابسَ. وللتنّين مخالبُ طويلةُ، كأنَّها الأفاعي الهائجة في الرمْضاء، بأفواه مرعبة، تطلقُ سمومَها، كما تطلق المدافعُ قذائفها المدمِّرةَ. أسألُ الجدَّةَ ــ زوجةَ رفيقِ عزِّ الدين القسَّام: (كيفَ نحمي أشجارَنا من سعير التنانين؟ كيفَ نصونُ مروجنا الخضراءَ من سمومها؟؟ كيفَ ندافعُ عن أفراحِ الأشجارِ؟؟..). يَنْفَتِحُ أمامي أفقٌ واسعٌ، يتراقصُ فيه الحَمامُ بنشوةٍ ومرحٍ، يَحْجُبُ عني الجدَّةَ إلاَّ وجْهَها وابتسامتها التي كانت تتراقصُ وتميلُ كما يتراقصُ البدرُ ويميلُ، بين أغصانٍ تتنهدُ بثمارها؛ عشقاً وشوقاً، إلى لقاء الأحبة الأوفياء، لتفتح أمامهم موائد الجودِ والكرمِ والعطاءِ.

انفجارٌ شديدٌ، يُخرجني من أحلامي، كما يُخرجُ الصيَّادُ السمكةَ من ملاعبِ أفراحها،

ليضعَها على تراب حارق. انفجارٌ آخر يحطِّمُ النوافذَ الأمامية للمشفى. يقتحمُ المشفى خمسةُ جنود، يبحثون عن شيء، يتقدَّمهم صراخُهم. يقفُ طبيبٌ كهلٌ، يحاولُ منعهمْ من التقدُّم. يلغطون بكلماتٍ وَسِخَةٍ. يصرخُ في وجههم. تنفجرُ معركةٌ بين الطبيبِ والجنودِ الصهاينة. تتحول المشفى إلى ساحة لمعركة بين طبيبٍ أعزلَ، يقاتلُ جنوداً مسلحين بالهراوات والبنادق، قلوبهم من حديد، تغلي بالحقد والكراهية. لم أصدَّقْ عينيَّ، كيفَ تحوَّلَ هذا الطبيبُ الكهلُ النحيفُ، إلى أسدٍ هَصورٍ. يحاول الجنود الصهاينة الخمسة، بكلِّ ما يملكون من قوة، الإمساكَ بالطبيب.. تذهب محاولاتهم في مهب الريح. رأيتُ كيفَ رفعَ الطبيبُ أحدَ الجنود الصهاينة وقذفَ به؛ فارتطمَ بالجدارِ ويهوي على الأرض، دون حركة. وتابعتُ وأنا في قمة الفرحِ، كيفَ أخَذَ الطبيبُ الجنديَ

الصهيونيَ الثاني وقذفَ به.. ورأيتُهُ كيف أرتفــعَ فوقي وهوى. سكنتْ آلامي. كأني غطستُ في مياهٍ دافئة، وبدأت أتهادى في مملكة النومِ، وأتــأرجحُ، كدُميةٍ في نهرٍ، طافَ بعد ذوبان الثلوج. إلى أيــن أمضي؟؟ من يعيدني إلى مدرستي، لألعــبَ مــع مهيار وعيسى، لعبة (عــسكر وحراميــة)؟؟ مــن يأخذني إلى قبرِ أمِّي، أكحِّلُ عيني بترابه. أين قبرُ أمِّي؟؟ لا أعرفُ. أخافُ أن تُدَنِّسَهُ رائحةُ صهيوني أرعن آثم! آه من هذا الخوف الذي يطاردنا في كل مكان، كما تطاردُ الأمراضُ الخبيثةُ الماكرةُ أكبــادَ البشر. يقذفُ بي النهر إلى صخرة. تعــودُ إلــى الآلام بقسوة. أصرخُ. أستغيثُ: (ماما!!.. ماما!!) أفتحُ عينيَّ. امرأة ــ تقفُ أمامَ ســريري، تجفِّــفُ جبهتي وتمسحُ وجهي بمنديلٍ أبيضَ. هل عــادتْ أمِّي إلى الحياة أمْ أنني انتقلتُ إليها؟؟ تقــدِّمُ لــي المرأة كأساً وتساعدني لأشربَ. تطفئ الماءُ نــاراً

في أحشائي. أصحو. أحدِّقُ إلى المرأةِ. إنَّها حاملٌ. أراها تتألمُ، وتقع على الأرض. تتغلبُ على ضعفها وتنهضُ. تحاول السيرَ. تظهرُ عربةٌ صغيرة توزِّع الطعام. يا إلهي! لا أذكرُ آخرَ وجبة طعام تناولتها. تساعدني ممرضةٌ على تناول وجبة طعامي وهي تطمئنني على تحسن وضعي الصحي. يدخل الأستاذ ماجد. يعانقني. يسألني: (لماذا ثيابك مبلولة؟؟). أجبتهُ مازحاً بمرحٍ: (كنتُ ألعبُ تحتَ المطر....)

? ? ?

عزُّ الدين ومريم

أيقظني صوتٌ ملائكيُ لطفلٍ وليدٍ، نَسَيتُ في البداية أنني في المشفى، مكسورُ اليَدِ، مُضَعْضَعُ الجسمِ. حاولتُ النهوضَ. أحبطَ الألَمُ محاولتي. أدرتُ رأسي، فرأيتُ وليداً على يميني، يَتَمَلْمَلُ في مَهده. وآخرَ، يَتَنَهَّدُ مُغَرِّداً بصوتٍ ملائكيٍ عَذْب: (غا! غا!) ــ هلْ أنا في حلمٍ؟؟. كانتْ الساعةُ

السادسةُ صباحاً. صوتُ المطرِ يصلُ إلى مَسْمَعي، لحناً بديعاً. يا إلهي! ما أجملَ الحياة! مطرٌ يـنعشُ الروحَ، وتَغْريدُ طفلٍ وليد. هَدْهَدَتْني أصابعُ الفرحِ، وراحتْ تعزفُ على صدري أنغاماً، طهَّرتني مـن الألم والأحزانِ. كلُّ مـا أتمنـاهُ أنْ آخـذَ هـذين الطفلين، على عَرَبَةٍ صغيرة، وأدورُ مَعَهُمـا فـي نُزْهةٍ قصيرة، بينَ الأزهارِ والأشجار؛ تحومُ حَوْلنا الطيورُ، منْ كلِّ حدبٍ وصَوْب. ستأتينا العصافيرُ من أماكنَ بعيدة. فقدْ أخبَرَني جـدِّي أنّ الطيـورَ تَعْشَقُ أصواتَ الأطفالِ، وتَحنُّ إليها وتَسْمَعُها مـن أماكن بعيدة. آه يا جدي! خذْ هذين الوليـدين فـي أحضانكَ، وعمِّدْهما بأنفاسكَ الطـاهرة وبـشِّرْهُما بأيَّامٍ حلوة، وبشِّرِ الطيورَ والغيومَ والبحارَ بهما. آه يا جدي! لو فارقني نورُ عينيـكَ، طَرْفَـةَ عَـينٍ، لَخَنَقَني الظلامُ والبردُ والألمُ. كأنَّكَ الآنَ إلى جانبي وأنا طفلٌ وليدٌ، تنظرُ إليَّ... تهطلُ دمعةُ فَرَحٍ من

عينكَ على خدِّي. ارتعشُ كعصفورٍ بَلَّلَهُ القَطْـرُ. تهطلُ دمعة أخرى، فأطيرُ فـي سـماءِ عينيـك، وأغيبُ في الأفُقِ البعيدِ. لا تَقُلْ لي أني كَنتُ فـي اليوم الأوَّل من عمري، لمْ أفقسِ من البيضةِ بعدْ، ولا أميِّزُ الألفَ من العـصا. هـلْ نـسيتَ أنـي حفيدُكَ.. والفَصيحُ من البيضةِ يصيحُ. أنظرُ، يـا جدي إلى هذين الوليدين، وأصغي إلى حوارهما ــ يغرِّدُ مَنْ على يميني فيُجيبهُ منْ علـى يـساري. إنَّهُما يناديان جَدَّيْهُما، ليباركا ميلادهمـا، ويتمنيـا لهما حياةً سعيدة. تُرى أينَ جـدَّاهمَا الآن؟؟ أيـنَ والدهما؟؟.... رعودٌ وبرْقٌ ومطرٌ غزيرٌ. ازدادتْ الحركةُ في المشفى. اقتربتْ عربةُ الطعامِ. حيَّتني المُمَرِضةُ نور ــ التي تـساعدُني علـى تنـاولِ طعامي ــ بابتسامة مـشرقة، وراحـتْ تـداعبُ الوليدين بمرَحٍ دافقٍ. كانَ الولَيدان ينظـران إلـى نور، ويتابعان حركاتها بشيء من الدَهْشَةِ والفرَحِ.

قالتْ نورٌ: (وُلِدا بالأمس. توأمان. بنــتٌ وَوَلَــدٌ.. سبحانَ الله! قمران. اللهمَّ صل علــى النبــي...) تذكرتُ تلك المرأةَ الحامــلَ،التي رأيتُهــا، تَمْــسَحُ العَرَقَ عنْ وَجْهي، وتَعْتَني بي في الليلةِ الماضية. كانتْ نور تذوبُ مَرَحاً وسعادة وهــي تــداعبُهُما. قلتُ لها: (ظننتُهُما وَلَدَيْك..). شَــهقتْ الممرضــةُ نورٌ بفخرٍ: (كلُّنا أهلٌ. كلُّكُم أبنائي. والله كأني أنــا التي وَلَدْتُهما...) سألتُها بفضول: (كمْ ولد عنــدك، سلَّمهمْ الله؟؟). قالتْ وهي تَتَأمَّلُني بفرحٍ: (عنــدي ولدٌ بعمركَ ــ ورَفَعَتْ يديها إلى الأعلى وهَتَفَــتْ بلهفة من أعمــاقِ قلبهــا ــ وفَّقَكُــم الله وأطــالَ أعمارَكم، ونصرَكُمْ على الأوغادِ الصهاينة!!. يــا رب!!). لم أكنْ أشعرُ بأيَّةِ رغبةٍ في الطعامِ، وقــد زادتْ رغبتي في الاسْتماعِ إلى المُمَرضــةِ نــور. سألتُها: (فقط؟! ولدٌ واحد؟؟). تناولتْ طَبَقَ الطعامِ وملأتْ الملعقةَ، ودسَّتْها برفْقٍ في فَمي وهي تتابعُ

كلامَها، دونَ أن تريني عينيها، وقالتْ بفخرٍ يختلطُ بألم وأسى: (أنا أمٌ لـــشهيدين.. الحمـــد لله علـــى كرَمه..) جاءتْ ممرضةٌ شابةٌ، وأخـــذتْ الوليـــدَ الأوَّلَ، بعد أن اعتذرتْ مني: (.. لمْ نجـــدْ مكانـــاً أكثرَ أمانا، نضعُ الوليدين فيه، إلاَّ عندك. الحمـــدُ لله. عادتْ أمُّهما لوعيها وصـــحتها. ســـآخذهما.. لترضعهما.).هتفتْ نـــور: (إن شـــاء الله، ألـــف صحة!). لم تُتِحْ الممرضةُ نور لي فرصةً لتوجيه الأسئلة ومتابعة الحديث معها، وهي تـــدعو لـــي بالشفاء والصحة. جاءتْ الممرضةُ الشابةُ وأخذتْ الوليدَ الثاني. تصورتُ المشهد وكأنِّي أراهُ بعينـــي ــ كيفَ ترى الأمُ وليدَها أوَّلَ مرة؟ وما هو طَعْـــمُ قُبْلة الأمِّ الأولى، على ثَغْرِ وليدها، بعدَ حَمْلٍ طويلٍ وعذابٍ مَريرٍ، ومخاضٍ أليمٍ، قدْ تدفَعُ الأمُّ حياتهـــا ثمناً له؟؟. رحمكِ الله يا أمِّي، وطيَّبَ ثراكِ.

رأيتُ الأستاذَ ماجد أمامي. اقتربَ وراحَ يمسحُ

دموعي بصمت. ثم جلسَ إلى جانبي يسألُني مشجعاً: (خيرٌ! خيرٌ!.. أعرفُ أنَّك اشتقتَ إلي..) كانتْ العَبَراتُ تمنعني من الترحيبِ بالأستاذ ماجد. إنَّه يُدركُ أنَّ كلَّ طفلٍ في فلسطين، يحملُ في قلبه جراحاً لا حَصْرَ لها. جراحٌ تَنْزِفُ وتئن، وتصرخُ، وتستجيرُ، وتَحلُمُ، وتغني! نعمْ! جراحي تُغَنِّي! وترقُصُ؛ تحاولُ أنْ تَقْفزَ فوقَ آلامها وأحزانها. قلتُ وأنا أبكي بمرارة: (أبكي.. من جراحي.. من... أبكي على.. أمي.. و.. جـ..د..ي..) شعرتُ بالمرارة تلمعُ في عين الأستاذ. كانَ يمسحُ دموعي وهو غارقٌ في صَمْتٍ عميق. كأنَّه كان يسبحُ في بحرِ دموعي، يبحثُ في الأعماق، عن أسرارِ دفينة، وهو يقرأ حكايةً طويلةً لأطفالٍ يحلمونَ بربيعٍ دافئ. سألني بودٍّ: (منذُ متى وأنتَ تبكي يا أحمد؟). أجبتُ بعفوية: (لم أبكِ في حياتي قطْ!). سألَ بتحدٍ: (وما هذه الدموعُ من

عينيكَ، تسيلُ نهراً على خديكَ وتجري على نَحْرِك وصدرِك؟!). قلتُ وقد فاضَ قلبي فرحاً وحبوراً: (هذه دموعُ حبي لأمي وأشواقي إليها... دموعُ حنيني لجدِّي.. دموعُ فرحي بميلاد طفلين توأمين.. جميلين..).. هكذا بَرَّرْتُ بكائي.. ثم قَصَصْتُ عليه قصةَ التوأمين.. وقبلَ أن أُنهي قصتي، وصلتْ الأمُّ، وهي تحملُ طفليها التوأمين. حيَّتنا، ثم وضعتْ واحداً على يميني والآخر على يساري، وقالتْ: (لم نسمِّها بعد. اخترْ لهما الاسمِ الذي يعجبك.). نظرتُ إلى أستاذي، راجياً أن يحملَ عنِّي شرفَ هذه المهمة. أشارَ بسُبابته مُعْتّذِرا، مؤكِّداً: (من فمكَ أحلى يا احمد.. ومنكمْ الخيرُ والبركةُ.). هَتَفْتُ: (عزُّ الدين!). تيمنا وإعجابا بشيخِ المجاهدين وإمامهم ــ القسَّام. ومريم! تخليداً لذكرى الجدَّة ــ زوجةِ رفيقه في النضال.. وأعني جدةَ أستاذي الحبيبِ ماجد.

حبيبتي جبلة

عشتُ أيَّاماً رائعةً مع صديقيَّ الجديدين التوأمين ــ عزُّ الدين ومريم. نامـا إلى جانبي ساعات طويلة. لا أصدِّقُ عينـي أنَّ عمرهُما لا يزيدُ عن أسبوع واحد، حينَ كنتُ أسمعُ صوتَهما وأرى تعابيرَ وجْهَيْهِماً. لمْ أرَ قريباً لهما إلاَّ أمَّهما

ــ الخالة، أم حسام. ثم جاءتْ لحظةُ الوداع القاسية. غادرتْ الخالةُ ضياء المشفى، مع صديقيَّ الحبيبين، وبقيتُ مقيَّداً إلى سريري، بيدي المكسورة وجسمي الضعيف ــ المُضَعْضَعِ. حاصرني خوفٌ شديد قاسٍ، وأنا أفكِّرُ: (إلى أينَ تمضي هذه المرأةُ بتوءميها، بلا معين أو مساعد؟؟). لماذا لمْ تودِّعَني؟؟. حملتْ توءميها وهي تقول: (ألقاكمْ بخيرٍ وعافية.. السلامُ عليكم..). ومضتْ، إلى عالمٍ محفوفٍ بالمخاطِرِ. لا شكَّ في أنها تكرهُ لحظةَ الوداع، وقد لا تتحمل مرارتها. كانت تغمرني بحنانها، في كل خطوة.. وكلِّ حركة. كانتْ تهتمُ بي أكثرَ من اهتمامِها بوليديها... وفجأةً، يمضي هذا الملاكُ، بوداع فاترٍ. رافقتكِ السلامةُ أيَّتها الخالةُ الحبيبةُ ــ أيَّتُها الأمُّ الملاكُ... حماكِ اللهُ من الأشرارِ الصهاينة، وأنتِ تمضينَ إلى بيتكِ، مع شقيقَيْ روحي ــ عزُّ

الدين ومريم. تُرى هل نلتقي ثانيةً؟؟.. ومتى..؟؟.. أه كمْ أتمنى أن أرافقكِ إلى مـــدينتك؛ أو قريتـــك، لأُراها وأتعرَّفها. فمن يدري، قد يصبحُ عزُّ الدين، قائداً كبيراً، يُكتبُ عنهُ في التاريخ: (عـــزُّ الـــدين الثاني ــ الذي هزَم الصهاينةَ الأشرارَ في معركة كذا وكذا. وُلدَ في الخامس من كانون الثاني عـــام ٢٠٠٢ / في إحدى مشافي فلسطينَ العربية. وقـــدْ أطلقَ عليه ابنُ شهيد، اسمهُ أحمد، اسمَ عزِّ الدين، لأنَّهُ يحبُّ عزَّ الدينِ القسَّام، ويعتبرُه مَثَلَهُ الأعلى. سنحققُ هذا الهـــدفَ العظـــيمَ، وسننتـــصرُ علـــى الصهاينة الأشرار؛ عاجلاً، أم آجلاً. ليتنـــا نكـــونُ معاً يا عزَّ الدين الصغير. إنه أيضاً اســـمٌ رائـــعٌ. فنحن سنبقى صغاراً أمامَ جَدِّنا الكبير عـــزِّ الـــدين القسَّام ــ طيَّب الله ثراه. فإذا أكرمني الله وكنـــتُ من الشهداء، فسأراكَ بروحي، وأنتَ تمضي إلـــى جبلةَ ــ مسقط رأسِ القـــسَّام، شـــيخ المجاهـــدين

وإمامهم، لتزورها وتعمِّدَ روحك بأريجها الطاهرِ. ولو كنتُ معك، في تلك اللحظة، فسأكتبُ على جدران بيوت جبلةَ بخطٍ كبيرٍ، وبكلِّ لغاتِ العالمِ: (حبيبتي جبلة). ثم نصنعُ معاً، ومريمُ معناَ، لوحةً كبيرةً، نرسم فيها المعالمَ التاريخية لجبلة، إلى جانب البطلِ القسَّام، ونكتبُ في وسَطِها بأحرُفٍ من ذهبٍ: (جبلة مدينة القسَّام ــ البطل العربي الكبير ــ مدينة فينيقية عريقة. عانتْ من الاحتلال الروماني والفارسي. حرَّرها الفتحُ الإسلامي سنة ١٥/ ــ١٧ للهجرة. تحتوي على العديدِ من المعالم الأثريةِ. وتحوي جبلةُ واحداً من خمسة مدرجات رومانيةٍ في العالم. يقعُ هذا المدرجُ وسط المدينة، وقد بُنَي في القرن الثاني، قبل الميلاد، ويُقْسَمُ إلى ثلاثة أقسام: المنصَّة والصَّحْنِ والمُدَرَّجِ، ويستوعبُ من ٨ آلاف إلى ١٠٠٠٠ متفرج. إنها مدينة الأبطال مدينة عز الدين القسَّام ــ شيخ

المجاهدين وإمامهم.). ثم نوقِّعُ: باسم أبناء شـــهداء فلسطين العربية. ستكون لوحةً جميلةً رائعةً، يقفُ أمامها الأطفالُ بدهشة وفــرحٍ؛ يحتفلــون بأعيــادِ نصرنا على الصهاينة الأشرار.. وهــم يــسألونَ آباءَهم وأمهاتهم، عن معاني هذه اللوحة البديعــة.. وسيأخذون أمامها الصور التذكارية. أرى بقلبــي وروحي، أجملَ الأعيادِ، تقامُ حولَ هــذهِ اللوحــة البديعة. قطعتْ الممرضة نور، عليَّ نهرَ أحلامي. سألتني باهتمام: (كنــتُ أراقبــك وأنــت ســارح بأفكارك. كان وجهكَ مشرقا بالفرَحِ. بماذا كنــت تفكر؟؟ قلْ (ولا تخبيش يا زين..). سألتها بمــرح: (بماذا يفكر طفل مثلي، قعيد سريرِ المرضِ ــ في مشفى. لا أقوى على الحركة. لا أقوى على تناولِ الطعامِ بمُفْرَدي؟؟..). قــاطعتني بزهــو: (خــسئ المرض! المريض ــ مريضُ النفسِ والعقلِ. أنــت أحمد حبيب خالتك ــ وأشارت بيدها إلى صــدرها

ــ المرضُ لأعدائك! يــا رب!). لا أدري كيــف أصفُ فرحي وسروري، بهــذه الكلمــات التــي خرجتْ من قلبِ الممرضة نور، وهي تُعــدُّ لــي وجبةَ الطعامِ. قلتُ: (لمْ تودِّعَنا الخالــةُ ضــياء.). شعرتْ الممرضةُ بما في صــدري مــن عتــابٍ وحسرةٍ. داعبتْ شعري بحنان وقالتْ: (يــا بنــي. لكلِّ إنسان ظروفه. مسكينةٌ أم حسام. سارتً على قدميها خمسَ ساعات حتَّى وصلتْ إلى المــشفى. قطعتْ عشرين حاجزاً صهيونياً. وَفَتَّــشوها أكثــرَ من خمسين مرة. قالتْ لي: (أمام حــاجزٍ واحــد، أوقفوها ساعة، في هذا الطقس المــاطر البــارد. الحمدُ لله على أنها لم تُسقِطْ الطفلين..). تــصورت الخالة أم حسام، تسيرُ وهي حاملٌ، مــن حــاجز صهيوني إلى حاجز، تتعرضُ لمضايقات الجنــودِ الصهاينة. صَرَخْتُ بصوت مخنوق: (مــساكين!. كيف يمكن أن يولدَ طفلٌ من بطــنِ أمِّــهِ، وهــو

يتعرضُ لكلِّ هــذا العــذاب؟؟.). ســألتْ: (مــن تقصد؟؟) قلت: (عــزَّ الــدين ومــريم.. وأطفــالَ فلسطين جميعاً!). نظــرتْ إلــي بعتــابٍ ولــوْمٍ، وألاحتْ لي بسبابتها، تُهدِّدُني بودِّ الأمِّ وحنانها:

ــ لم أنتظرْ هذا منك يا أحمد! لقد وُلدنا جميعاً في المعارك فأصبحنا أبطالاً. ماذا نريد أكثرَ مــن ذلك؟؟. المجدُ لا يأتي رخيصاً. المجدُ يحتاجُ إلــى همَمٍ عاليــة... يحتــاجُ إلــى أبطــال، يتحــدون المَصاعبَ والأهوالَ. المجدُ يحتاجُ إلــى صــمودٍ وتحدٍ... وصبرٍ..

ثم صمتتْ وهي تَلُمُّ عدةَ طعامي. نظرتْ إلــيَّ طويلاً وقدْ عادت إليها رِقَّتُها وقالتْ: (لقد اختارنــا الله لنقبرَ الصهيونيةَ في هذه الأرضِ.. لأننا الأقدرُ والأحقُّ ــ وكرَّرتْ بفخرٍ واعتزازٍ ــ نعمْ الأقــدرُ والأحقُّ. وهذا شرفٌ لنا جميعاً ، نحن العــرب..)

وهمَّتْ بالانصراف. أخذتُ يدَها. قبَّلتها بكلِّ ما أملكُ من حبٍّ وتقدير.. ثم نظرتُ إلى عينيها وسألتها: (من أينُ تأتونَ بهذه الكلمات التي تشفي الروحَ، وتحيي القلوبَ؟؟). نظرتْ إليَّ طويلاً صامتةً، وكأنَّها تراني بعدَ غياب طويل: (من ينظرُ إلى عيون الأطفال ــ الأبطالَ أمثالَك، يصبح حكيماً). انحنتْ. قبَّلتْني ومَضَتْ..

البشرى

لمْ أعدْ أذكرُ صديقيَ عيسى ومهيار. ولم يذْكرْهُما الأستاذُ ماجد لي، مرةً واحدة في زياراته المتكررة. نسيتُ نفسي، ونسيتُ دارَ أبناء الشهداء، التي عشتُ فيها أيَّاماً طويلة؛ وتعرَّفْتُ فيها إلى صديقين حبيبين ــ عيسى ومهيار. أينَ هما

الآن؟؟.. لقدْ أنساني التوءمان ــ عزٌّ الدين ومريم كلَّ شيء. كأنَّهما شمسان، بزغا في حياتي.. ومع الشَّمس، تصحو الحياة، وتستيقظُ القوة، والنشاطُ والحيوية، وتتراقصُ الأفراحُ، في الصدورِ والأرواحِ؛ تبشِّرُنا بأحلامنا، كأنَّها غيوثُ خيرٍ عميمٍ ، تروي كلَّ ما نتمناه؛ وبشائرُ خيرٍ، تسقي القلوبَ بالفرحِ والسرور. فكيفَ إذا كانتْ هذه البشرى ــ توأمين ــ مضاعفةً؟؟.

ومع رحيلِ عزِّ الدين ومريم، عادتْ الكآبةُ إلى روحي.. وعادتْ الآلام إلى جسمي بقوة وعنف. أصبحَ الزمنُ طويلاً. كأنّي أمشي في مستنقعٍ، ليس له آخر ــ عواصفُ هوجاءُ، غاضبةٌ حاقدةٌ، في أرضٍ موحشة. أشعرُ، كأنَّ أنفاسي، تخرُجُ من صدري، كما يخرجُ البخارُ من إبريق يغلي. تسألني الممرضةُ نور: (يبدو لي أنَّكَ مازلتَ حزيناً

لفراقِ عزِّ الدين ومريم..). أجبتُ: (نعــم! ويكــادُ الحزنُ يَخْنُقني..). قالتْ تلومني بشدَّة كعادتها:

ــ ولِمَ الحزن؟ أنا فَرِحةٌ لقيام أُمِّهما بالسلامة. لقد مضتْ وهي تحمل توأَميها، كأمٍّ بطلة ــ لَبْوَةٌ، اجتازتْ العقبات وتغلبتْ على أشدِّ الصعوبات، لتلدَ توأمين ــ نجمتين.. زهــرتين بــديعتين للحيــاة، وشوكتين في عين الأشرار الصهاينة... أغمضتُ عيني وأنا أفكرُ وأقولُ لنفسي: (أعرفُ أن كلماتك، جَدْوَلٌ عذبُ، يسقيني؛ فأزهرُ كشجرةٍ فــي ربيــع جوادٍ كريم. لكنَّ الصهاينة ــ الغربانْ، يحومــون حولي، بفؤوسهم وحرابهم ومخالبهم. أنا شــجرةٌ، تحلمُ بزقزقة العصافيرِ وتَغْريــدِ البلابــل.. تحلــمُ بخروفٍ يتقافَزُ مَرَحا، وبمُهْرٍ أبــيضَ، أوَ أحمــرَ، تحكي لــه أمُّهُ حكاياتٍ عن الفرسان، وعن عشقهم للخيولِ العربية.. تحكي لــه عن أجــدادها الــذين

قطعوا مسافات شاسعةً، يطيرون بفرسان، يطهِّرون الأرضَ من ظلامِ الشرِّ، وينشرون الحضارة العربية، نوراً لكلِّ الناسِ. هيّا أيُّها المهرُ الحبيبُ، اقتربْ منِّي، واحكِ لي حكاياتِ أمِّكَ الفرس، لأحكي لك حكاياتِ جدي كلِّها. فمازلتُ أحفظها جميعها، في صدري.. أراها وأشعرُ بها، كأنَّها فراشاتٌ، تطيرُ في كلِّ مكان، تحكي للناسِ، حكاياتِ جدي، عن فرسانٍ لا يهابونَ الموتِ، يضحُّونَ بأنفسهم، في سبيلِ الخيرِ والحقِّ، سيوفُهم ــ تَقْتُلُ الظالمَ رعباً، قبلَ أنَ تقتلَهم طَعْناً. وتنشُرُ السَّلامَ جوداً وحباً. هيَّا طيري أيَّتُها الفراشاتُ، بكلِّ ما تحملين من ألوانٍ، إلى الأغصانِ والأزهارِ، وكلِّ مَرْجٍ وروضةٍ وبستان ودوحةٍ؛ إلى السُّهولِ والجبالِ والوديانِ، وانثري حكاياتِ جدي واغرسيها، لترعاها الغيومُ بكلِّ ما فيها من كرمٍ وحنانٍ، وتحضُنُها النجوم بضيائها المقدَّسِ،

وتعْزُفُ عليها الطيورُ أجمَلَ ألحانها؛ فترقصُ البشرى، كما ترقصُ الأَنهارُ الدافقةُ وتُغَنِّي لبيادرِ الخيرِ ومواسمِ الجود والعطاء. أفتحُ عينيَّ. مازالتْ الممرضةُ نور جالسةً قربي على السَّرير، تبتسمُ لي كطفلٍ استيقظَ من نومٍ عميقٍ. أسْمَعُها تناغيني، كما تناغي الأمُّ رَضيعَها. يا للمفاجأة! مَنْ أنا؟؟ كيفَ يعودُ الطفلُ رضيعاً، بعد سنينَ طويلةٍ من المرارةِ والعذاب والحرمان؟؟. قلبي يرفُّ كطفلٍ رضيعٍ؛ تغمُرُهُ أَمُّهُ برائحتها، فيغرِّدُ بصوته الملائكي؛ يعمِّدُ الكونَ بأفراحِ الحقولِ. أرى فراشةً تحومُ حولي.. ترقصُ وتصفِقُ بجناحيها.. تكبرُ وتكبرُ وتكبرُ.. تفردُ جناحيها، بألوانها الزاهية. تأخذني الممرضةُ نور إلى صدرها، وتقفزُ بي إلى جناحِ الفراشة، فتطيرُ بنا الفراشةُ إلى الفضاء، تحيطُ بنا وترافقنا أسرابٌ من الفَراشِ، يموجُ حولَنا، كأنَّهُ بحرٌ حالمٍ. أعرفُ أَنِّي أحلمُ، وأنا

أحدِّقُ في عيني نــور. أرى ابتــسامتها كقنــديلٍ يرتجفُ الظَّلامُ حوله، رُعبْاً وهَلَعا. منْ منكمْ رأى جنودَ الظلامِ، تهوي صريعةً قتلى، بحرابِ قنديلٍ، يحملهُ رجلٌ عجوزٌ، يسيرُ في شــوارعً يأَســرها الظلامُ؛ يَتَفَقَّدُ الناسَ، ويبحثُ عن مسكين، ليمدَّ لــه يد العوْنِ والمساعدة. كانَ هذا العجوزَ جدِّي. ففي يومٍ شتائيٍ ماطرٍ عاصف، أرعبني هزيمُ الرعود. وضاعَ مني النومُ. وبحثتُ عنه طــويلاً. أخيــراً، وجدتُه في صورةِ أرنبٍ أبيضَ يقفزُ تحتَ المطــرِ في مرجٍ أخضرَ، بمَرَحٍ وحبورٍ، فتضحكُ الغيــومُ، وتبرقُ عيونها بَهْجَةً وسروراً. حَكَتْ لي أمِّي أكثرَ منْ حكايةٍ.. وغنَّتْ لي ما تحفَظهُ من أغانٍ، لكنَّني كنتُ أتابعُ الأرنبَ في ألعابه ومَرَحِه. كنْتُ أطاردُه وأُناديه.. لكنَّه كان يشاكسُني وهــو يبتعــد عنِّــي ويقتربُ؛ يدورُ حولي برَشَــاقَةٍ ومَــرَحٍ؛ يغرينــي باللَّعبِ معه. يرقصُ لي. مــن مــنكمْ رأى أرنبــاً

يرقصُ؟؟ أنا رأيتُه وسمعتُ صوته. قال لي: (إلى اللقاء يا أحمد إلى اللقاء!) ثم طارَ.. ربَّما قَفَزَ قَفْزَةً وَوَصَلَ بها إلى الغيومِ.. وراحَ يَسْبَحُ فيها.. كأنَّه دلفين في أعماقِ البحار، يداعبُ الأسماكَ بحركاته البديعة؛ يُسَلِّيها ويرعاها. ناديته: (أيُّها الأرنـــــ.. الدلفين! خذْني إليكَ!.. لأسبحَ معكَ في بحرِ الغيمات.. أريدُ أنْ نكونَ أصدقاء.). هتفَ الدلفينُ: (وأنا أحَبُّكَ يا أحمد..) وأنزلَ لي حبْلاً، بدأتُ أتَسَلَّقُهُ. دخلَ جدِّي فأيقظني من أحلامي. كان جدِّي مبللاً، كأنَّهُ خرجَ لتَوِّه من نهرٍ وقعَ فيه. كانَ يمسُكُ بيده طيراً صغيراً أسودَ اللون، مُنَقَّطاً بالأبيض؛ وباليدِ الأخرى، يحملُ قنديلا قديما. أَذكرُ أنَّني سهرتُ مع جدِّي حتَّى الصباحَ، نعتني بالعصفورِ، حتى انتعشَ وعادت له صحته. أخذني جدي من يدي، ومضنيا إلى غرفةٍ واسعة، كانتْ مليئة بطيور وحيوانات عديدةً. أطلقَ جدي العصفورَ في

تلك الغرفة الواسعة، وقال لي قبل أن أسأله: (هنا أضعُ الطيورَ المريضة والجريحةَ، حتَّى تشفى. وأنت! ألا تحبُّ الطيورَ والحيوانات؟؟). هَتَفْتُ: (جدا). ورحتُ أتأمَّلُ الطيورَ والحيوانات بغبطة ونشوة. ولمْ أصدِّقْ عيني حين رأيتُ الأرنبَ يخرجُ من إحدى الزوايا، ويقترب من جدي بهدوء واطمئنان، حتى التصق به وراحَ يتشمَّمُهُ بشوق. قالَ لي جدِّي: (هذا أرنوب الحبوب.. وجدته في العامِ الماضي، مكسورَ القائمتين الخلفيتين. داويته، حتى شفي وأصبح كالنمرِ..). تهزني الممرضةُ نور وتسألني: (أين كنتَ شارداً بأفكارِكَ وخيالك الخصْب؟؟) أقول لها ببساطة: (في عينيك..) تسألني بفضولٍ حميمٍ: (..لماذا في عيني يا أرنوب الحبوب؟؟). أجيبُ بفخرٍ واعتزاز: (لأنَّني أرى فيهما البشرى.. بشرى النصرِ والسلام).

قنديل جدي

** لماذا لمْ أَحْكِ لكمْ حتَّى الآن عــنْ قنْــديلِ جدِّي؟؟ لقدْ أنْسَتْني الأَحداثُ، الكثيرَ ممــا أُحَــبُّ، حتَّى قنديلَ جدي، الذي لمْ يُحبْ شيئاً في حياتــه، كما أحبَّ ذلكَ القنديلَ القديم، الذي يعملُ على زيتِ الكاز. وأذكُرُ أنَّنا كنَّا نستخدمُ أكثرَ من قنديلٍ فــي

المنزلِ والبستان، عندما تنقطعُ الكهرباء عنا، لكنَّ جَدِّي لَم يكنْ يُحب إلاَّ قنْديلهَ، الذي رأيته يَدْخلُ به، حينَ جاءَ بالعصفورِ المُرَقَّط. كان يسمي قنديلَهُ (حبيبَ الروحِ)، ويُنَظِّفُهُ بعنايةٍ وحنانٍ، كما تنظِّفُ الأمُّ وليدَها البكرَ.. ثم يقبِّلهُ ويضُمُّهُ إلى صدرِه، كما كان يعانقني ويضمُّني إلى صدرِه. لاشكَّ في أنَّه كان يثيرُ فضولي وغيرتي وغضبي أحياناً. حينَ كانّ يجلسُ إلى قنديلهِ ويسرحُ بأفكارِه، بعيداً عني. وكنْتُ أجلسُ، أرمُقَهُ من مسافةٍ قريبة، وأتمنى لو أستطيعُ أنْ أُدخلَ إلى أفكارِه وأطوفُ معَها في فضاءِ الذكريات، تُزَرْكِشُها وتُلوِّنها، طيورُ الأحلامِ السَّاحرةِ. كانَ يبتَسِمُ ويضحكُ ويبكي أحيانا.. وكانَ يغنِّي طويلاً بصوتٍ مَهْموس، فيأتيني صوتُهُ كصوتِ نايٍ حزينٍ، يحكي آلامَ البَشرِ وأحلامَهم، عَبْرَ دروبهم الطويلة الشائكة. كان يغني لأمِّه، ويُكثرُ ويُسْهِبُ في ذكرِ

الوفاءِ والخيانة والعهدِ والدِّيرةِ والأهــلِ، قبــلْ أن ينهضَ ويرفعَ يديْه إلى السَّماءِ، يدعو ويتضرعُ إلى الله. ثم يجلسُ على المصْطَبة وأنــا إلــى جانبــه. عندئذ أشْعُرُ بأنَّهُ صَعَدَ إلى قمَّة جبل، بعــدَ جهــد جهيد؛ وهاهو يجلسُ الآنَ على قمَّة الجبلِ، يحتفــلُ بانتصارِه أمامي. ثمَّ ينظــرُ إلــيَّ ويهتــفُ بكــلِّ جوانحه: (.. أتَذْري أنك أذكى وأطيبَ كائن رأيتُهُ في حياتي؟؟).. ثم يعانقني، وهو يَتَغَنَّــى: (حبيــبُ الروح. أنت حبيب الروحِ!). أسأله: (هــل تحــبُّ القنديلَ أكثرَ منِّي؟؟.. هل القنــديلُ طيــبٌ أيــضاً وذكي؟؟) لا يجيبُ جدي. مازالَ غارقاً في صَمْته. أسأَلُهُ: (ماذا يعني ذكي؟؟ هلْ يستطيع الــذكيُّ أَن يطردَ الصهاينةَ من أرضنا؟؟.) أكررُ هذه الأســئلةَ غيرَ مرة، لكنَّ جدي لا يخرجُ عن صمته، وهــو يحدِّقُ إليَّ، يَتَفَحَّصُني؛ كأنَّه يشجعني على طَــرْحِ المزيدِ من الأسئلة. أصمتُ فَيَنْهَرُني بودٍّ: (مالــكَ

صامتٌ يا ولَدُ.. حديثُ القلــوبِ يُــنْعِشُ الــرُّوحَ ويحركُ الأفكارَ). أسألُه: (ماذا قلتَ يــا جــدي؟؟) فيكررُ وابتسامتُه المشرقَةُ تــرِّفُ علــى محيَّــاه: (حديثُ القلوب.. حديثُ القلوبِ.. ألمْ تسمع بحديثِ القلوب؟؟) أسألُهُ (ماذا تقصدُ يا جدِّي؟؟) فيشيرُ إلى قلبِه واضعاً كَفَّهُ اليمنى فوقَ كفه اليُسرى: (إذا كانَ القلبُ تماماً، غدا كلُّ شيء تمامــا.) ثــم يأخــذني بمرَحٍ من يدي ويسيرُ بي مــسرعاً إلــى غرفــة حيواناته، قبلَ أن يُتيحَ لي فرصةَ التفكيرِ بما قالَــه لي. ومُنْذُ تلكَ الأيامِ أصبحتُ مساعدَهُ الأوَّلَ فــي عنايته بحيواناته التي تحتاج إلى مساعداتٍ وعنايةٍ خاصَّة. في تلكَ المرَّة رأيتُ غزالةً فقدْت إحــدى قائمتيها الأماميتين. راقبْــتُ جــدي وهــو يقــومُ بمداواتها، لكنَّني كنتُ عاتباً عليه، وأنا أسألُ نفسي: (متى جاءَ جدي بهــذه الغزالــة؟؟.. ولمــاذا لــم يصْطَحِبُني معه؟؟). ومنذُ تلك اللحظةِ، بدأتْ أفكِّرُ

كثيراً بتلك الغرفة الكبيرة التي يجْمَعُ فيهـــا جـــدي العديدَ من الحيوانات، وأسألُ نفسي ــ كيفَ يـــأتي جدي بهذه الحيوانات وكيفَ يعثُرُ عليها ومتى...؟؟ ذاتَ يومٍ، كنتُ أستعدُّ للنوم، وأمِّي إلـــى جـــانبي، تحكي لي إحدى حكاياتها الماتعة... رأيتُ جـــدي يَحْملُ قنديلَهُ ويَستعدُّ للخروج. انطلقْتُ خَلْفَه، راجياً متوسِّلاً أنْ يأخذُني معه، لكنَّهُ رفضَ اصـــطحابي: (أنتَ صغيرٌ.. وعليكَ أنْ تنامَ.. أنـــا أتـــأخَّرُ فـــي العوْدَة.) لا أدري كيـــفَ ســـيْطَرَ علـــيَّ العنـــادُ، فانطلقْتُ إلى خارجِ الغرفة، ورحتُ أبتعدُ وأبتعـــدُ، وجدِّي يحاولُ اللَّحاقَ بي وإمساكي. أخيراً وافـــقَ وهو يقولُ لي: (سآخذك معـــي.. وذنبُـــكَ علـــى جنبك). وسارَ بي يمسكُ يدي. رأيتُ القمَرَ، يبتَسِمُ لي من بين الأغصانِ، ويُهَنِّئُنـــي فَرِحـــاً، برحلـــةٍ يَصْطَحبُني فيها جدي أوَّلَ مرة، في جولاته الليليةِ الطويلة. في تلكَ الليلةِ مَنَحَني جدي شرفَ حمْـــلِ

قنديله الغالي. كيفَ أصفُ تلكَ اللحظات وأنا أسمعُ من جدي تلكَ العبارةَ الَتي حملتُها وساماً رفيعاً على صدري: (أصبحتَ رجلاً يا أحمد! احملْ القنديلَ وسرْ أمامي!) شعرتُ أني أصبحتُ شريكاً لجدي ورفيقا. سألني: (أتذكرُ أنَّكَ ذاتَ يومٍ، وكانَ عمرُكَ لا يزيدُ عن ثلاث سنوات، وتَبِعْتَني دونَ أن يلحظَكَ أحدٌ.. وكانت الليلةُ مقمرةً مثل ليلتنا هذه؟؟. فجأة سمعتُ صوت أمِّك يأتيني من بعيد. هرعْتُ تجاه الصوت، حتى رأيتُ أمَّك تتَّجه إلي بكلِّ ما تملك من قوة، وهي تصرخ، متَقَطِّعةُ الأنفاسِ: (يا عمي! ضاعَ أحمد. كان نائماً إلى جانبي، استيقظتُ فلمْ أجدْهُ...) وراحتْ تبكي وتُوَلْوِلُ وتستغيثُ، وهي تكادُ تختنقُ من شدَّة الهَلَعِ، وبدأنا نبحثُ عنك. كنتُ مطمئناً إلى أنَّني سأجدُكَ سالماً معافى، لكنَّني كنتُ خائفاً على أمِّكَ من أن تموتَ رعبا. لم نترُكْ زاويةً لم نبحثْ فيها

عنك. انهارتْ أمُّك ووقعتْ على الأرضِ. في هذه اللحظةِ سمعتُ صوتَك يأتيني من بعيد. ركضتُ باتجاه الصوت.. رأيتُك تسيرُ وتقفزُ؛ وإلى جانبكَ أفعى كبيرةٌ. عندما رأتني، رفعتْ رأسَها إلى الأعلى وبدأت تميسُ نحو اليمين ونحو الشمالِ، وإلى الأسفلِ والأعلى. رفعتُ القنديلَ إلى الأعلى فانسَلَّتْ الأفعى ومضتْ في حالِ سبيلها.. وجئتَ تركضُ إلي. في تلك الليلة حمَّلتُكَ القنديل لأنِّي حملتُ أمَّك إلى المنزل، وهي فاقدةُ الوعي. أوصلتُ أمَّك ووضعتُها على فراشِها؛ واندسستَ إلى جانبها ونمتما معا. وفي الصباحِ، جلستْ أمُّكَ إلى جانبي تحكي لي أنَّها رأتك تضيعُ منها في المنام.. وتطلبُ مني تفسيرَ هذا الحلم المزعج. قلتُ لها إنَّ الأحلامَ المزعجةَ هي ــ كوابيسٌ، أراحنا الله من شرِّها، في اليقظةِ والمنام. والصهاينة يا أمِّ أحمد ــ هم الكابوسُ اللعينُ،

خزاهم الله. وأمام كوابيس الصهيونية، تهونُ كلُّ الكوابيس. وأسألُ نفسي الآن (ما الذي كان سيحدثُ لأمِّي لو رأتْ الأفعى إلى جانبي وأنا ألعبُ معها؟؟. أتذَكَّرُ الكثيرَ من هذه الأحداث. هذه أحلامٌ. وقدْ تختلطُ الأحلامُ بالحقيقة. وحتى الآن، كثيراً ما أرى نفسي ضائعاً، في حقل واسع، أبحثُ عن جدِّي، حتى أجده. والتفاصيلُ كثيرةٌ لا تُحصى، وأذكرُ منها الكثيرَ. إنَّها كالعناقيدِ تنتشرُ في كرومِ خيالي وذاكرتي. فهلْ ما أقصُّه عليكمْ الآنَ ــ كان حلماً أمْ حقيقةً، عشْتُها في الواقعِ، أمْ أنَّها من أزهارِ خيالي وغيومِ أفكاري؛ وأنا مُسْتلقٍ هنا على هذا السريرِ في المشفى، أحلمُ بالشِّفاءِ والعودةِ إلى دارِ أبناء الشهداءِ، إلى جانبِ صديقيَّ ــ عيسى ومهيار.؟؟

حامل القنديل

مازلتُ في المشفى. منذُ أسبوع، لم أرَ الممرضةَ نور. تساعدني الآن، ممرضةٌ أخرى، باسِقةُ القوام، في تناولِ طعامي ودوائي. لم أرَ أجملَ من هذه الفتاة من قبل. يبدو عليها أنَّها تعطي عملَها كلَّ اهتمامها وجهدِها. لمْ تحاولْ فتحَ أيِّ

حديث معي. لمْ تسألني سؤالا واحداً. اشـــتهيتُ أنْ أرى ابتسامتَها مرةً واحدةً. ظَنَنْتُها فتاةً آليةً. فمـــنْ يدري؟؟ ففي كلِّ يومٍ نسمعُ عـــن إنجـــازٍ علمـــي عجيبٍ لا يُصَدَّقُ، يفوقُ آفاقَ الخيالِ. وقدْ أخبرَنـــا العلماءُ أنَّ الإنسان الآليَ، سيكونُ لهُ شأنٌ كبيرٌ في حياتنا. أظنُّ أنَّ الإنسانَ الآليَ لا يأكلُ ولا يـــشربُ ولا يتألمُ ولا يبتسمُ. لكنَّني رأيتُها صباحَ اليومِ تأكلُ برتقالةً، وهي مُنْهَمِكةٌ في عملِها، قَبْلَ أنْ تقدِّمَ لـــي طعامَ الإفطارِ. أمَّا طعامُ الإنسانِ الآلي وشرابُه ــ فبطَّاريات توضعُ في مكانٍ ما في جسمه. قلتُ لها: (لا أرغبُ في تناولِ الطعامِ..) قالتْ: (لا يجـــوزُ.. يجبُ أنْ تتناولَ فطورِكَ..). سألتُها عنِ اسمها وأنا أحاولُ تصنُّعَ الرِقَّة والدماثة. فاجأها سؤالي وهـــي تنظرُ إلي كأنَّها تراني أوّلَ مرَّة. أجابـــتْ وظـــلَّ ابتسامةٍ خفيفةٍ يَخْفُقُ على شفتيها: (فارعة). قلـــتُ:

(اسمٌ جميلٌ) وأضفتُ: (..سمعتُ بإنسان آلي يشبهُ الإنسانَ العاديَّ تماماً.. يُقالُ أنَّهُ سيعيش بيننا؛ تَصنَعُهُ المعاملُ، ليخدمَ البشرَ في جميعِ المجالاتِ. ظَنَنتُ في البداية أنَّكِ ممرضةٌ آليةٌ يفاجئنا بها العلماء..) كتمت الممرضةُ ابتسامتها، وسألتْ بفضول: (تظنُّ أنِّي ممرضةٌ آليةٌ؟ لماذا؟) قلتُ لأنَّ البشرَ يبتسمونَ، ولمْ أرَكِ تبتسمين مرةً واحدة. تنهدتْ بعمقٍ وقالتْ: (الحقُّ معك. مازلتُ جديدةً على العمل.) ثم راحتْ تحثُّني على تناول إفطاري؛ لكنَّني امتنعتُ بإصرار. قالتْ: (لا تكنْ عنيداً.. العنادُ عادةٌ سيئةٌ..) قلتُ: (إذا كان لكلِّ داءٍ دواءٌ.. فدوائي ــ ابتسامةٌ تُنْعِشُ الروحَ وتفرحُ القلبَ. ألا ترينَ أنني حزينٌ كئيبٌ أيضا؟؟.. وكئيبٌ + كئيبة = مصيبة). لمْ أتوقعْ أنَّ عبارتي ستُضحِكُها إلى هذا الحدِّ. وقدْ بدتْ لي ضحكتُها

أجْمَلَ من صاحبتها.) تَـأَمَّلَتني، دونَ أن تفـارقَ الابتسامةُ وجْهَهَا ثمَّ قالتْ: (يا حسرة! من سَيعطينا ممرضةً آليةً، ونحنُ بحـسرةِ الـدواء؟؟..). ولـم تنقطعْ عنْ الابتسامِ، تارة، والضحكِ تارةً أخـرى وهي تساعدني على تنـاول إفطـاري، وتتـأمَّلني بفضول. سألتني: (هل ارتحتَ؟.. هاقدْ ضحكتُ.. ماذا تريد أيضاً؟؟) قلتُ: (أينَ الممرضةُ نـور؟؟) قالتْ: (..توفيتْ أمُّها.. العمرُ لكَ..). لمتُ نفـسي على هذا السؤال. سأفكِّرُ طويلا بالمُمَرِّضة وأمِّها. وقدْ لا أنامُ اليومَ، والزمنُ في المشافي ثقيـلٌ بليـدٌ شائكٌ، فعندما أكونُ حزيناً، يبتعـدُ عنّـي النـومُ، وتهجمُ عليَّ الذكرياتُ، لتلعبَ بي، كمـا الرِّيـاحُ بريشة شاردة، تأخـذني حيـث تـشاءُ. سـألتني: (مالك؟؟ أراكَ عدتَ إلى الكآبة؟؟) قلتُ والمـرارةُ تحرقُ صدري: (أعانَ اللهُ الخالةَ نور.. كـمْ هـي

الحياةُ قاسية!.. ما أصعبَ فراقَ الأمِّ!..) قاطعتني: (نتحَمَّلُ قضاءَ الله، مهما كان صعباً.. وتبقى الحياةُ جميلةً ورائعةً، إذا لم يدنِّسُها الأشرارُ بأعمالِهم القذرة. فماذا تقولُ فتاةٌ مثلي، عندما يأخذ الجنودُ الصهاينةُ زوجَها، وهي في ليلة عرسها، بعد كتبِ الكتاب مباشرة، ولا يتركونه ــ تتغلبُ فارعة على عَبَرَاتها ــ .. وهاهو ذا مشلولٌ، فاقدّ الذاكرة، لا يتكلمُ.. ولا يتألم..) صَرَخْتُ دون وعي: (جريمة!! جريمة!) قالتْ وهي تمْسَحُ دموعَها: (أليستْ كلّ أعمال الصهاينة جرائم؟؟ جرائم من أحقرِ ما ارتكبَ الناسُ من جرا..) ثم استدركتْ: (من قالَ إنهم ينتمون إلى الناسِ؟. إنَّهم عارٌ في تاريخِ البشرِ!.. وأنتَ؟ من الذي جعلكَ قعيدَ هذا السرير، لا تقوى على الحركة؟؟ أليس هم الصهاينة الأشرار؟؟ من قتلَ..؟).. صرختُ بكلِّ ما املكُ

من قوة: (كفى! كفى! لا تخبريني شيئاً.. لا تقولي إنَّ عيسى ومهيار قُتِلا! قولي إنهما من الأحياءُ في قلبِّ أحمد!.. وكفى!).. لكنَّ صوتي بقيَ في صدري.. ثم رفعتُ يديَّ إلى السماءِ وتضرَّعْتُ إلى الله: (اللهمَّ ألحقني بعيسى ومهيار، أينما كانا..) واعتمتْ الدنيا في وجهي. من بعيد، جاءني بصيصٌ من نور؛ وبدأ هذا البصيص يكبرُ ويتَّسعُ ويكبرُ، حتَّى اتضحتْ صورةُ جدِّي، حاملا قنديله الحبيب. وقفَ إلى جانبي وناولني قنديلَه الغالي. حملتُ القنديلَ، وسرنا معا في بستاننا الكبير، نشقُّ دياجير الظلام. لكنَّ الحزنَ والألمَ، كانا يضغطان على صدري بقوة. نَشَجْتُ من الألمِ. انحنى جدي وراحَ يحدِّقُ إليَّ. صرخَ في وجهي: (مالكَ يا ولد؟! خائف؟! أتحملُ القنديلَ وأنتَ خائف؟! واحسرتاهُ على الرجال!. إياكَ أن تَخْنُقَ القنديلَ يا

حاملَ القنديلِ. ارفعْ قنديلكَ عالياً منارةً وتاجاً وسَيْفاً!!..) رفعتُ القنديلَ كأنِّي أُشْهِرُ سيفي لأقولَ للرفاقِ والأحبابِ وكلِّ أخيارِ الدنيا: (تقدموا! فالبحرُ من ورائكم والعدو من أمامكم.. فأين المفر؟؟..). بدأتْ دياجيرُ الظلامِ تهوي مضرَّجَةً بدمائها السوداء؛ وتحترقُ بسهامِ قنديلِ جدي. كنَّا جيشا عَرَمْرَما ــ من الأطفالِ، بسيوفٍ تُبْرِقُ وتُرْعِدُ وهي تطاردُ فلولَ الظلامِ، وأنا أسمعُ أصواتَ احتراقها كأنَّهُ حَطَبٌ يابسٌ تلتهمُهُ النيران.. ثمَّ يتطايرُ رمادُها معَ الريحِ. هيَّا يا جدِّي! سِرْ بنا.. لا تتوقفْ؛ هاأنا أرفعُ قنديليَ عاليا، ليشرق كالشمس، في رحابِ الحياة. تميسُ الأشجارُ فَرَحاً، وتصفِّقُ الطيورُ فخرا واعتزازاً، وتصدحُ البلابلُ بأناشيدِ النصرِ، وتبتهجُ الغيومُ وهي تذوب غيثا كريما، يعانقُ مروجنا الخضراءَ،

عناقَ الأحبَّةِ بعدَ شوقٍ طويلٍ؛ فترقصُ الأنهارُ نشوةً وحبوراً، بين الحقولِ والبساتين، تردِّدُ مواويلَ جدي. أسمعُ صوتَ الأمطارِ، تعزُفُ ألحانَها على صدري، ثم تنحدر إلى عشبٍ أخضرَ، تطرِّزُه الأحلامُ بأجمل الأزهار. هاهو بستانُنا الواسعُ الرحبُ، يحتضنُ الأرضَ من القطبِ إلى القطْبِ. جموعٌ لا حصرَ لها من البشرِ، تهتفُ بفَخْرٍ لقنديلِ جدي، وهي تحملني على أكتافها. ومن بين الجموعِ، ينبعُ وجهُ فارعة، هاتفا: (عاش!! عاش!! حاملُ القنديل!)

الخلاص

لمْ استَفِقْ من حلمي الأخير إلاَّ علـــى صـــوتِ الأستاذ ماجد. كأنه لم يفارقني أبدا. قال يبشرني:

ــ ستخرج من المستشفى اليوم.. وستعود إلى مدرستك.

سَألتُ بأَعْصابٍ باردةٍ:

ــ فَقَطْ، إلى مدرستي؟؟.. وزملائي؟ أحبائي؟ أصدقائي؟ عيسى ومهيار؟....

أجابَ وهو يمْسحُ لي جبهتي براحةِ يده الدافئة:

ــ ألا تؤمن بأنَّنا جميعا شهداء في سبيلِ هــذه الأرض؟؟

قلت: بلا، فأضاف: (إذنْ، نحنُ جميعاً نــسيرُ إلى الشهادة، بعضُنا يسبقُ بعضا..) قلت وأنا أكتم عَبَراتي: (لماذا لم نمضِ معــاً؟؟ لمــاذا ســبقاني وتركاني وحيدا؟؟) أجابني والأسى واضــحٌ علــى محيَّاه: (الأذكياءُ يطرحونَ أسئلةً وجيهــةً ومهمــةً ثمَّ.. ليتنا نفكِّرُ بأسئلة أهم، يا أحمد.) شــعرتُ أن عتَبَهُ كان شديداً عليَّ، وربَّما كان لوماً قاسياً.. وقد ابتلعتُه بروحٍ رياضية، رغمَ أنَّهُ كان لومــا أليمــاً عليَّ، رافقني من المشفى إلى مدرستي ــ دارُ أبناء

الشهداء، التي خرجتُ منها، برفقة الأستاذ ماجد ومهيار وعيسى، لنشيِّعَ الجدَّةَ إلى مثواها الأخير، ولم أعد إليها، إلاَّ بعدَ رحلة طويلة من الألمِ والعذاب. في اليومِ الأوَّلِ منَ عودتي للمدرسة، جَلَسْتُ أحاسبُ نفسي على ما ارتكبته من أخطاء، وعاهدْتُ نفسي أنْ لا أكونَ عنيداً، وأن أسمعَ نصائحَ الأكبَر منِّي وأنْ أحترمَ أراءهم. وكتبتُ وثيقةً ووقعتُها، وطلبتُ من الأستاذ ماجد أن يكونَ شاهداً على عهدي على نفسي. لكنَّ الأستاذَ ماجد مزَّقَ تلك الوثيقة، وقال زاجراً: (انتبهْ لدروسكَ يا بني!). لن أستطيعَ تفسيرَ العبارةِ التي رماني بها الأستاذُ ماجد. هل رماني بسهمٍ، أم بوردة؟.. وأنا لا أنتظرُ إلاَّ كلَّ خيرٍ من أستاذي وصديقي ماجد. تغيَّرَ كلُّ شيء منْ حولي، حتَّى الأستاذُ ماجد. فقدْ أصبحَ أكثرَ جدِّيةً وأكثرَ حزماً وصرامة.. ومازالَ

وجههُ يحملُ آثاراً واضحةً لجراحٍ وكدماتٍ قديمة.

أفكِّرُ كثيراً باستقبالِ زملائي لي. كان استقبالاً حميماً وحاراً، كأنهم يستقبلون بطلاً من الأبطـــال، بينما كنتُ ألومُ نفسي على عنادي، الذي كان سبباً في استشهاد صديقيَّ الحبيبين ــ عيسى ومهيـــار. لقد داوتني المشفى من جراحٍ وكسورٍ أصـــابتني؛ وبقيت جراحٌ أخرى ــ في أعماق الـــروح ــ لـــم يداوِها أحدٌ، ولمْ يفكِّرْ بها أحدٌ، حتَّى الأستاذُ ماجد. من يَرَني، يظنْ أنني خرجتُ من تحتِ الأنقـــاض، أو منْ معركةٍ طويلةٍ قاسيةٍ.. وكانَ خروجي حيّـــاً من هذه المعركة، معجزةً كبيرةً.. لذا كنتُ فرحـــةً كبرى لكلِّ من رآني. لكنَّ أفكاري، تعرجُ وتتعثَّـــر أكثرَ مني، وتـــسيرُ فـــي أرضٍ وعـــرةٍ، وتتقـــدَّمُ بصعوبةٍ وبطء. يلتفُّ زملائي حولي.. ينتظـــرون منِّي أنْ أحكي لهمْ شيئاً مما جرى معي. أتفرَّسُـــهُمْ

واحداً واحداً.. أظنُ أنْ عدَدَهم تضاعفَ. أسألُ نفسي ــ ماذا يحدثُ لو اجتمعَ الحزنُ والألمُ والفرحُ، بالبهجة والسرورُ في مكانٍ واحد؟؟ أي في قلبٍ واحد، وبدأت المعركة بينهم جميعا.. معركةٌ قاسيةٌ لا ترحمُ، وكلٌّ منهم يَستميتُ في الظَّفَرِ بالنصر والسيطرة؟؟ أظنُّ أنَّ الخاسرَ الوحيدَ هو القلبُ، لأن المعركة تجري في ساحاته وعلى أرضه. لكنَّ المعارك لا تجري دائماً بصورة متكافئة. فالحزنُ والألمُ، يستخدمان أسلحة قاسيةً لا ترحمُ؛ تجرحُ القلبَ وتؤذيه؛ بينما تستخدمُ الأفراحُ المشاعرَ الطيبةَ؛ كي تداوي ما سببته الأحزانُ من جراح. لن أنسى نصيحة حبيبي وأستاذي ماجد (انتبه لدروسك يا بني) سأذكرُ هذه العبارة في كلِّ لحظة، مع كلِّ نبضة من نبضات قلبي. فهلْ ستنسيني الدروسُ جدِّي وأمي وأَبي؟؟.. هل

ستنسيني حبيبي عيسى ومهيار؟؟ هــل ستنــسيني التوأمين عزَّ الدين ومريم؟؟ ذكرياتٌ تدورُ حــولي كما تدورُ نجومٌ حــولَ كوكــبٍ أخــضرَ ــ هــذا الكوكبُ هو قلبي. نعم قلبي أخضرُ، يقاومُ مخالــبَ الأشرارِ وسمومِهم.. وسيبقى قلبي أخضرَ، يحلــمُ بالغيومِ والمطرِ؛ يحلمُ بالطيورِ والزهــرِ.. يحلــمُ بمزارع الزيتون وبيَّــاراتِ البرتقــال والليمــون، وبمروجٍ خضراءَ مطرَّزَة بزقزقــات العــصافير وتغريدِ البلابلِ؛ تَرِنُّ فيها ضحكاتُ الأطفالِ، وهــمْ نيامٌ، يحلِّقونَ في الفضاء، على أجنحــة الأمــاني والأحلامِ، يؤذِّنون لفجرٍ جديدٍ، يعبقُ بأريجِ المحبةِ والسلام.

ها أنا أبدأ مــشواراً جديــداً، فــي دارِ أبنــاءِ الشهداء، مع أصدقاءٍ جددٍ، أذكرُ بعضَهُمْ ولا أذكرُ بعضَهم الآخرَ. من يدري، فقد يكون لنــا معهــم

قصصٌ وحكاياتٌ جديدةٌ، نُكْمِلُ عِبْرَها طريقنا إلى نصرنا العربي الكبير، في تحرير كامل ترابنا، من رجسِ الصهاينة الأشرار. سيكونُ هذا عيدا لكوكبنا كلِّهُ، عندئذ سأكتبُ قصةً طويلةً جداً، أهديها لكلِّ أطفالِ العالم، أتحدَّثُ فيها عن جرثومةٍ غريبةٍ عجيبةٍ، سميتُها الجمرة الصهيونية الخبيثة.. انتشرتْ في أكثرِ بقاعِ العالمِ، واحتَلَّتْ فلسطينَ العربيةَ، وقتلتْ العديدَ من أطفالِها ورمَّلَتْ العديدَ من نسائها.. لكنَّ العربَ كانوا لها بالمرصاد.. قاتلوا وصمدوا وضحوا بكلِّ ما يملكون، من أجلِ أن يخلِّصوا البشرية من شرِّ تلك الجرثومة الخبيثة وبلائها. لقد حرمتني من أحبِّ الناسِ إلى قلبي ــ جدي وأمي وأبي وعيسى ومهيار..

وقَبْلَ أن أودِّعكُم أودُّ أنْ أخبركُم أن الأستاذَ ماجد أهداني بالأمس كتاباً يحكي قصةَ يوسف

العظمة. وقال لي أنَّه يرى في حياة هــذا البطــل، عِبْرَةً كبيرة، يريدُني أنْ أستفيدَ منها. سأقرأ هــذا الكتابَ ثلاثَ مراتٍ قبْلَ أنْ أحاولَ استخلاصِ هذه العِبْرَةَ. آملُ أنْ تبحثُوا معي عن هذه العِبْرَةِ. فحياةُ أبطالنا مليئة بالعِبَرِ الغنية.. أليستْ هذه العِبَرُ ينابيعَ وأنهاراً وجداولَ، نحتاجُها في طريقنا إلى نــصرِنا العربي الكبير؟؟!.

دمشق ٢٠٠٣

المحتوى

الإهداء..... ٥
خطوة موفقة على درب وعر، ميخائيل عيد ١٠
حبيبتي جبلة ١٤
شدة وتزول ١٧
أحلام أحمد وعيسى ٢٥
.. وأنا ابن شهيد ٣٢
رسالة إلى خالتي..... ٤٠
ذكريات الجدة..... ٤٩
وعْكَةٌ صحيةٌ..... ٥٧
الطفل العجيب ٦٤
لغة الغيوم ٧٨

أين العيد؟؟..... ٨٦
الزيارة ٩٤
العصفور الشجاع ١٠٢
عسكر وحرامية..... ١١٠
رحيل الجدة..... ١١٨
إلى أين ١٢٦
عزُّ الدين ومريم ١٣٤
حبيبتي جبلة ١٤٣
البشرى..... ١٥١
قنديل جدي ١٦٠
حامل القنديل..... ١٦٩
الخلاص ١٧٨